الفروق الفردية من منظور إسلامي – دراسة تربوية تأصيلية

أ.د. أحمد إسماعيل مقبل
أستاذ مناهج التربية الإسلامية وطرائق تدريسها المشارك
بقسم مناهج الدراسات الإسلامية وطرائق تدريسها.
كلية التربية صنعاء -جامعة صنعاء

الملخص

4

هدف البحث إلى التعرف على الفروق الفردية من منظور إسلامي وذلك من خلال الإجابة عن التساؤلات الآتية:

١. ما التأصيل الشرعي للفروق الفردية؟
٢. ما الصور الواردة في القرآن الكريم المراعية للفروق الفردية؟
٣. ما النماذج العملية في السنة النبوية لتطبيق الفروق الفردية؟
٤. ما النماذج التطبيقية لدى علماء المسلمين؟

وقد استخدم الباحث المنهج الوصفي الاستنباطي، وتوصل إلى نتائج منها:

١. الفروق الفردية من المنظور الإسلامي تشمل الخصائص المادية والروحية.
٢. أن الفروق الفردية سنة من سنن الله في خلقه لتحقيق الابتلاء والامتحان، والتعاون في شئون الحياة.
٣. الفروق الفردية تتأثر سلبا وإيجابا بعوامل عقدية، ووراثية، وبيئية، وثقافية، واجتماعية، واقتصادية.
٤. تضمن القرآن الكريم في تكاليفه بدائل متنوعة بحسب استطاعة المكلف، مراعيا بذلك الفروق الفردية.
٥. الفروق الفردية للفرد ليست ثابتة، فهي تمر بمراحل ضعف، ثم قوة، ثم ضعف وشيبة، وقد يفقد الفرد كل قواه (أرذل العمر)، فلا يعلم بعد علم شيئا.
٦. استخدم النبي صلى الله عليه وسلم طرائق وأساليب عديدة لمراعاة الفروق الفردية، مع الفئات المختلفة.
٧. مارس علماء الإسلام في تعليمهم، وتعاملهم، وفتياهم مراعاة الفروق الفردية، والحال، والزمان، والمكان.

ABSTACT

The study aims at investigating the individual differences from an Islamic perspective by answering the following questions:

1. What is the Islamic fundamental standard of individual differences?
2. What examples mentioned in the Holy Qura'an that take into consideration individual differences?
3. What practical examples shown in the "Sunnah" that exemplify individual differences?
4. What practical examples shown by Muslims Scholars that exemplify individual differences?

The researcher has used the descriptive deductive approach and has found the following results:

1. Individual differences from Islamic perspective include the material and spiritual characteristics.
2. Individual differences are one of Allah's methods to test His creatures and to lead to cooperation in life affairs.
3. Individual differences is affected positively or negatively by religious, genetic, environmental, cultural, social and economic factors.
4. The Holy Qura'an in its mandates includes various alternatives to meet the individual ability taking into account individual differences.
5. Individual differences for individual are not constant, they pass through stages of weakness, then strength , then weakness and old age, and maybe a complete loss of strength (decrepit age), then after knowing the person will know nothing.
6. The Prophet –peace be upon him- used various ways and methods to meet individual differences among different groups of people.

7. Muslims Scholars took into consideration the individual differences, the circumstances, and time and place when teaching, dealing with others and when giving "Fatwa" .

مقدمة البحث:

خلق الله الخلق مختلفين ومتفاوتين في أنواعهم وأشكالهم وأحجامهم وألوانهم ولغاتهم، مع أن أصل جميع المخلوقات من ماء قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)} [النور] فهو"يذكر قدرته وسلطانه وعلمه وتدبيره؛ مخبرا: أنه خلق الخلائق كلهم من هذا الماء، على اختلاف أجناسهم وجواهرهم من شيء واحد وأنهم لم يكونوا بالطباع كذلك" [الماتريدي، ٢٠٠٥، ج٧، ٥٨١]. وهذا المعنى نجده عند الشعراوي حين قال: " وهذه الخِلْقة ليست على شكل واحد ولا وتيرة واحدة في قوالب ثابتة، إنما هي ألوان وأشكال {فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ}" [الشعراوي،ج١٧، ١٠٣٠٠]

فالمنظومة الكونية تتحد في المصدر والهدف، فموجدها ومبدعها واحد وهو الله فاطر السموات والأرض، ووجهتها واحدة وهو التسليم والخضوع لمنشئها جل جلاله {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)} [الإسراء]. {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) } ال عمران].

ومع هذا التوحد في المنظومة الكبيرة، نجد أن لكل منظومة داخلها خصائصها ومميزاتها، ومنها عالم الإنس الذي ميزه الله وكرمه على سائر المخلوقات، حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)} [الإسراء]"وَالتَّكْرِيمُ: جَعْلُهُ كَرِيمًا، أَيْ نَفِيسًا غَيْرَ مَبْذُولٍ وَلَا دَلِيلٍ فِي صُورَتِهِ وَلَا فِي حَرَكَةِ مَشْيِهِ وَفِي بَشَرَتِهِ، فَإِنَّ جَمِيعَ الْحَيَوَانِ لَا يَعْرِفُ النَّظَافَةَ وَلَا اللِّبَاسَ وَلَا تَرْفِيهَ الْمَضْجَعِ وَالْمَأْكَلِ وَلَا حُسْنَ كَيْفِيَّةِ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا الِاسْتِعْدَادَ لِمَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعَ مَا يَضُرُّهُ وَلَا شُعُورَهُ بِمَا فِي ذَاتِهِ وَعَقْلِهِ مِنَ الْمَحَاسِنِ فَيَسْتَزِيدُ مِنْهَا وَالْقَبَائِحَ فَيَسْتُرُهَا وَيَدْفَعُهَا، بَلْهُ الْخُلُوَّ عَنِ الْمَعَارِفِ وَالصَّنَائِعِ وَعَنْ قَبُولِ التَّطَوُّرِ فِي أَسَالِيبِ حَيَاتِهِ وَحَضَارَتِهِ. " [ابن عاشور، ١٩٨٤،ج١٥، ١٦٥]، وسخر الله له كل شيء في هذا الكون كقوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) } [الجاثية] " أي: سخر لهم ما في السماوات من الملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم، وغيرها، وما في الأرض من الأشجار، والنبات، والبهائم، والدواب، حتى استعملوها كلها في منافعهم وحوائجهم، كما استعملوا أملاكهم التي تحويها أيديهم بتسخير اللَّه – تعالى – لهم ذلك كله"[الماتريدي، ٢٠٠٥، ج٩، ٢١٩]

ومن أجل بناء وتعمير الحياة وتحقيق هدف استخلاف الإنسان في الأرض، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) } [الأنعام]، كان من الطبيعي أن تكون طبائع الناس وقدراتهم واستعداداتهم مختلفة ومتعددة؛ من أجل تحقيق هذا الاستخلاف، وهذا يقتضي معرفة الفروق الفردية وتوجيهها وإعدادها للإسهام في تحقيق الأهداف التي أوجدهم الله من أجلها، ولم يترك الإنسان ليكون معملا للتجارب؛ بل كرمه الله تعالى بمنهج من عنده، فهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير، بين فيه أصل الإنسان، وطبيعته، وعلاقته بخالقه، وبالكون، وبالمخلوقات كلها، وأرسل الرسل للبيان وإقامة الحجج، ولترجمة المنهج عمليا في الحياة، وجاء بعد الرسل العلماء والمعلمون الذين هم ورثة الأنبياء، ومن هنا يمكن القول: كلما كان فهم خبراء المناهج والمعلمين للفروق أعمق، كان تصميم الخبراء للمناهج الدراسية أو تطويرها مراعيا للفروق الفردية ومستوعبا لها، وكان تعامل المعلمين مع طلبتهم فرادى أو جمعا أفعل وأكفأ، وأقدر على تفعيل طاقاتهم، وتصويب التصور الخطأ لدى بعض الآباء بأن الأبناء لابد أن يكونوا نسخة من آباءهم أو تكون طبائعهم واحدة، وكذا التصور الخطأ لبعض المعلمين من يرون أن طلبتهم لابد أن تكون قدراتهم ومواهبهم وميولهم واحدة، ويجهلون أو يتجاهلون الفروق الفردية بين الأفراد، وقد "كشفت دراسات الفروق عن وجود تباين داخل الفرد، التباين بين قدراته الخاصة كقدرته على التفكير اللفظي، وعلى التفكير المجرد، وعلى إدراك المكان، وقدرته العددية، وقدرته اللغوية، والتباين بين سمات شخصيته كالسمة الاجتماعية، والقلق، والتحرر، وقوة الأنا الأعلى، وكذلك أساليبه المعرفية، وأساليب تعلمه واتجاهاته نحو الموضوعات المختلفة" [الريماوي، ١٩٩٤، ٢٤٩]، وهذا ما تؤكده أيضا الدراسات "أن كل شخص لديه إمكانات واستعدادات لإنتاج أفكار إبداعية بدرجة مختلفة في الكفاءة". (Runce, 2004)

ومن هنا يتضح أهمية معرفة الفروق الفردية لتفعيل جميع الطاقات وإشراكها في تحقيق الأهداف، من خلال تنويع الأنشطة في المنهج، ومن خلال تنويع طرائق تدريس المنهج وأساليبه، والتقنيات التعليمية، والأنشطة المختلفة.

ونظرا لما تفتقده المكتبة العربية من تأصيل لهذا الجانب والاعتماد الكلي على المراجع الغربية، والحاجة الملحة لدى المعلمين والباحثين بشكل عام، ومعلمي القرآن الكريم وعلومه، والتربية الإسلامية على وجه الخصوص؛ جاءت فكرة إجراء هذا البحث.

مشكلة البحث:

تزايد الاهتمام بالفروق الفردية وضرورة مراعاتها في مدخلات العملية التربوية والتعليمية، وعملياتها، ومخرجاتها، ويعد هذا الموضوع من الأمور المتفق عليها لدى المربين؛ ولما لهذا الموضوع من أثر كبير في العملية التربوية والتعليمية، كان لابد من تصور إسلامي مستنبط من النصوص القرآنية والنبوية، ومن تراثنا العربي والإسلامي، وإبراز الجوانب التربوية التطبيقية لمراعاة الفروق الفردية من حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم كنموذج يقتدى به، مع الاستفادة من تجارب الآخرين، بما لا يتناقض مع مبادئنا وقيمنا وفق التصور الإسلامي للفروق الفردية؛ لذا يحاول البحث الحالي الإجابة عن الأسئلة الآتية:

أسئلة البحث:

١. ما التأصيل الشرعي للفروق الفردية؟
٢. ما الصور الواردة في القرآن الكريم المراعية للفروق الفردية؟
٣. ما النماذج العملية في السنة النبوية لتطبيق الفروق الفردية؟
٤. ما النماذج التطبيقية لدى علماء المسلمين؟

أهداف البحث: يهدف البحث إلى:

١. الكشف عن الفروق الفردية من منظور إسلامي ، والتأصيل الشرعي لها.
٢. إبراز الفروق الفردية في القرآن الكريم من خلال التكاليف الشرعية.
٣. إبراز التطبيقات النبوية المراعية للفروق الفردية .
٤. الكشف عن تطبيقات علماء الإسلام للفروق الفردية.

أهمية البحث: تكمن أهمية البحث في أنه يختص بالكشف عن الفروق الفردية من منظور إسلامي، ويمكن إيجاز الأهمية في الآتي:

- الاسهام في التأصيل للفروق الفردية .
- بيان النماذج التطبيقية لمراعاة الفروق الفردية في المنهج الإسلامي (الكتاب والسنة).

- بيان أهمية مراعاة معلمي القرآن الكريم والتربية الإسلامية للفروق الفردية في العملية التربوية.
- بيان علاقة الفروق الفردية بفهم النصوص والاختلاف بين العلماء.
- تساعد خبراء المناهج والمعلمين في مراعاة الفروق الفردية من خلال بناء المناهج الدراسية أو تطويرها وطرائق التدريس وأساليبها المتنوعة.
- تساعد في اكتشاف أصحاب المواهب والقدرات المتفاوتة وتوظيفها في حياتهم العملية.

منهج البحث: اتبع الباحث المنهج الوصفي الاستنباطي من خلال استقراء النصوص القرآنية والنبوية، حول موضوع البحث، واستنباط الفروق الفردية، مع الاستعانة بكتب التفسير، وشروح الحديث، والقواميس والمعاجم، وكتب السيرة والتربية.

حدود البحث: تناول مجموعة من النصوص القرآنية والنبوية ذات العلاقة بالفروق الفردية، وشرح علماء التفسير، والحديث النبوي لها، واستنباط الفروق الفردية، وعرض بعض النماذج التطبيقية .

مصطلح البحث:

- **الفروق الفردية:** فرق: بَين الشَّيْئَيْنِ فرقا وفرقانا فصل وميز أَحدهمَا من الآخر وَبَين الْخُصُوم حكم وَفصل وَفِي التَّنْزِيل {فافرق بَيْننَا وَبَين الْقَوْم الْفَاسِقين} وَبَين المتشابهين بَين أوجه الْخلاف بَينهمَا وَله عَن الْأَمر كشفه وَبَينه" [مجمع اللغة، ج٢: ٦٨٥].

وتعرف الفروق الفردية بأنها: "تلك الفروق الموجودة في الخصائص الجسمية والعقلية والنفسية المختلفة التي تميز فردا عن غيره" [طه،١٤٢٦هـ، ٤٦٥).

ويقصد بالفروق الفردية في هذا البحث: مجموع الخصائص والقدرات والاستعدادات الجسمية والنفسية والعقلية والروحية التي تميز الفرد عن غيره.

الفروق الفردية من منظور إسلامي: يقصد بها عملية منظمة، تعتمد على جمع النصوص من الكتاب والسنة النبوية، المتضمنة للفروق الفردية، وتحليلها؛ لتحديد مجموع الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية والروحية، ظاهرا، أو باطنا، التي تميز الفرد عن غيره، سواء كانت مادية، أو معنوية.

الدراسات السابقة: قام الباحث بمراجعة الأدبيات والدراسات السابقة ذات الصلة بموضوع البحث، من خلال زيارته للعديد من المكتبات والمواقع الإلكترونية، وحصل على بعض الدراسات والبحوث العلمية، وما ورد بشكل موضوعات أو تناول غير مباشر في كتب التراث، مثل: كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، والخلق الكامل لمحمد أحمد جاد المولى، وغيرهما..

وسوف يتم عرض الدراسات السابقة من الحديث إلى القديم، متناولا الهدف من الدراسة وأهم النتائج وهي:

١ -دراسة: الصفدي، والأسطل، (٢٠١٠) ، هدفت الدراسة إلى التعرف على جملة المواقف التربوية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، والتي تناولت موضوع مراعاة الفروق الفردية واستنباط الفوائد منها.

اتبع الباحثان المنهج الاستقرائي والاستدلالي، توصلت الدراسة إلى نتائج منها:

٢ -خلق الله الناس على صفات متفاوتة، وإدراكات متباينة، فلا بد من مراعاة الفروق الفردية بين الناس.

٣ -تنوعت الأساليب التي استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم في مراعاة الفروق الفردية.

٤ -دراسة: القرشي، (٢٠٠٥) هدفت الدراسة إلى التعرف على الفروق الأساسية بين الرجل والمرأة وحكمة وجودها،

اتبعت الباحثة المنهج الوصفي، وتوصلت الدراسة إلى نتائج منها:

١ -الفروق التكوينية : يختلف الرجل عن المرأة اختلافا بينا في التكوين، وما ينبني عليه من اختلاف في الطبائع، وباختلاف تركيبهما الفسيولوجي والنفسي صار كل منهما يعمل في دائرة اختصاصه.

ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في: حق الحياة، وأصل الخلق، وفي أصل التكليف، وفي الواجبات والحقوق والجزاء، وفي الدماء والحدود، وفي العقود والتصرفات المالية.

٢ -الفروق الأساسية: يختص الرجل دون المرأة بالنبوة، القتال في سبيل الله، القوامة على المرأة، الطلاق، الولاية العظمى، تعدد الزوجات.

٣ -تختص المرأة دون الرجل حق الخلع، الحجاب، العدة والحداد إذا توفى عنها زوجها، حق الحضانة عند انفصال الأبوين، حق المهر.

٤ -دراسة: اليماني، (١٤٢٦ه)، هدف البحث إلى التعرف على الفروق الفردية، وطبيعتها، ومظاهرها، وأهميتها، وأهم العوامل المؤثرة فيها، والأبعاد الأساسية لها، وأهم المبادئ التي ارتكزت عليها في ذلك، بيان منهج السنة النبوية في التعامل مع الفروق المختلفة بين الأفراد.

اتبع الباحث المنهج الوصفي، وتوصل إلى نتائج منها:

- أن الفروق الفردية نعمة من نعم المولى تبارك وتعالى اشتملت على حكم جليلة، وأسرار عظيمة من أهمها: تحقيق مفهومي الابتلاء، والتسخير.
- إن اختلاف الفروق الفردية يعد اختلافا في الدرجة لا النوع.
- تميزت السنة النبوية في مراعاتها لمبدأ الفروق الفردية بتعميم المفهوم في شتى مجالات الحياة، ومناحيها، ولم تقتصر مراعاة المبدأ في الشأن التربوي فقط.

١ - دراسة: الحربي، (١٤١٦ه)، هدفت الدراسة إلى استنباط القواعد العامة للتعامل مع الفروق الفردية.

اتبع الباحث المنهج المسحي الاستنباطي، وتوصلت الدراسة إلى نتائج منها:

- القاعدة الأولى: أن التكليف يكون بقدر وسع الإنسان وطاقته.
- القاعدة الثانية: أن القرآن الكريم جاء بالتخفيف عن المسلمين في كل ما يشق عليهم.

- **علاقة الدراسات السابقة بالبحث الحالي:**

يتقف البحث الحالي مع الدراسات السابقة في تناول الفروق الفردية بشكل عام، ويختلف معها من حيث المضمون، فدراسة الصفدي والأسطل تناولت المواقف التربوية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، بينما دراسة القرشي تناولت الفروق بين الذكور والإناث، ودراسة اليماني تناولت التعرف على الفروق الفردية، وأهميتها وطبيعتها، ومظاهرها، كما تناولت دراسة الحربي القواعد العامة للتعامل مع الفروق الفردية، والبحث الحالي تناول الفروق الفردية من منظور إسلامي، فتمحور حول التأصيل الشرعي للفروق الفردية والنماذج التطبيقية من الكتاب والسنة ونماذج من مراعاة علماء الإسلام للفروق الفردية.

الاطار النظري للبحث:

إن الحديث عن الفروق الفردية أو الجماعية، ومعرفة خصائصها، وقدراتها، واستعداداتها، بعيدا عن معرفة طبيعة الإنسان وتكوينه، والغاية من وجوده؛ تكون قاصرة؛ لأن معرفة حقيقة خلق الإنسان ومكوناته الأساسية تعين على معرفة ما يتفرع عنها، ولا يمكن معرفة حقيقة الإنسان والغاية من وجوده، إلا من خلال خالقه الذي خَلَقَهُ وكونه {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)} [الملك: ١٤]، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)}[ق] فالله سبحانه وتعالى قد بين في كتابه العزيز

مراحل تكوين الإنسان والغاية من خلقة، فقد فصل في أكثر من آية كيفية بدء مراحل الخلق؛ من الماء ثم التراب ،ثم الطين، ثم من الصلصال الذي يشبه الحمأ المسنون، ثم نفخ فيه الروح، وصدق الله القائل:{وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)} [الذاريات] والمعنى: "وَفِي أَنْفُسِكُمْ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق: ما تتحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني، وبالألسن، والنطق، ومخارج الحروف، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها: من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة المدبر " [الزمخشري، ج، ٣٩٩].

ويقول بعض المفسرين لتوضيح معنى هذه الآية "وَالْمَعْنَى: أَلَا تَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ أَنْفُسِكُمْ: كَيْفَ أَنْشَأَكُمُ اللَّهُ مِنْ مَاءٍ وَكَيْفَ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا، أَلَيْسَ كُلُّ طَوْرٍ هُوَ إِيجَادَ خَلْقٍ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا قَبْلُ. فَالْمَوْجُودُ فِي الصَّبِيِّ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا فِيهِ حِينَ كَانَ جَنِينًا. وَالْمَوْجُودُ فِي الْكَهْلِ لَمْ يَكُنْ فِيهِ حِينَ كَانَ غُلَامًا وَمَا هِيَ عِنْدَ التَّأَمُّلِ إِلَّا مَخْلُوقَاتٌ مُسْتَجَدَّةٌ كَانَتْ مَعْدُومَةً فَكَذَلِكَ إِنْهَاءُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْمَوْتِ." [ابن عاشور، ١٩٨٤م، ج٢٦، ٣٥٣].

وهذا يعني أن: "الفروق الفردية تشمل كافة مجالات النشاط الذي يصدر عن الشخصية، وذلك لكونها نظاما متكاملا ثابتا بعض الشيء ويتكون من السمات الجسمية والنفسية المختلفة ويميز الفرد عن الأفراد الآخرين في الجماعة، وبخاصة من حيث التعامل مع البيئة"[كمال، عثمان، ٢٠١٠، ٦٢]. ومن الملاحظ أن نشاط الفرد وعلاقته، لا تنحصر مع البيئة فقط، وغالبا ما يهمل علماء النفس، علاقته بخالقه وخالق البيئة التي تنعكس على علاقته بالبيئة سلبا أو إيجابا، ويؤكد هذا أحد الباحثين بقوله: "إننا لا نستطيع أن نفهم شخصية الإنسان فهما واضحا بدون أن نفهم حقيقة جميع العوامل المحددة للشخصية، سواء كانت مادية أو روحية، أو اجتماعية وثقافية، أما الاقتصار على دراسة العوامل الجسمية البيولوجية، والعوامل الاجتماعية والثقافية فقط، وإهمال أثر الجانب الروحي في الإنسان، فإن من شأن ذلك أن يعطينا صورة غير واضحة وغير دقيقة للشخصية" [الجرموزي، ١٩٩٧م، ٥٨]

- **حقيقة الإنسان:**

أخبرنا الله سبحانه وتعالى بكل الحقائق المتعلقة بالإنسان، ابتداء بأصله ومما خلق، والأطوار التي مر بها في بداية الخلق والأطوار التي يمر بها بعد ذلك قال تعال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)} [المؤمنون] {إِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)} [ص] وقد وردت آيات عديدة في القرآن الكريم تفصل هذه الحقيقة، وتبين أن الإنسان مكون من أصلين: أصل مادي أرضي وهو التراب، وأصل رباني وهو الروح { وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} ،والإنسان يتكون من ثلاث ركائز (أركان): النفس(الجسد)، الروح، الدين، ولا يستكمل الإنسان إنسانيته إلا بهذه القوام الثلاث،{ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)} [النمل]"والمعنى: لا تحزن يا محمد، ولا تُهلك نفسك على هؤلاء الذين لم يؤمنوا من قومك، فما عليك إلا البلاغ. والبلاغ كلام له أداة استقبال في السامع هي الأذن، فإذا تعطلَتْ هذه الأداة لن يسمعوا، وهؤلاء القوم تعطلَتْ عندهم أداة السمع، فهم كالموتى الذين أصابهم الصمم، فآيات الله الكونية كثيرة من حولهم، لكن لا يروْن ولا يسمعون.

وليت الأمر يقف بهم عند حَدِّ الصمم، إنما يُولُّون مدبرين من سماع الدعوة، وهذه مبالغة منهم من الانصراف عن دعوة الحق؛ لأنهم إنْ جلسوا فلن يسمعوا، فما بالك إذا ولَّوْا مدبرين يجروُن بعيداً"[الشعراوي، ج١٧، ١٠٨٤٨ -١٠٨٤٩] { وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢)} [فاطر: ٢٢]، وحقيقة الركائز ثلاثة: قلب، ولسان، وجوارح، والقدرة ثلاث: قدرة جوارحية، وقدرة لسانية، وقدرة قلبية، والحديث يؤكد هذا «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[النيسابوري، ج١، الحديث رقم ٧٨، ٦٩]، والإيمان يتضمن الثلاث القدرات، فهو: نطق باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح.

وللجسم خصائصه وحاجاته، وللروح خصائصها وحاجتها، فالإنسان" الكائن الوحيد -فيما نعلم - الذي يشمل المادة والإشعاع معا، متصلين ممتزجين، عاملين معا دون أن يفقد أحدهما ليتحول إلى الآخر، يشمل هرمون الجنس الكيماوي - الذي تصحبه مشاعر الجنس النفسية من حنين وحب ورغبة وسرور وابتهاج وإحساس بالجمال، ويشمل العقيدة الروحية - التي تصاحبها حركات جسدية من التعبد والسلوك، وذلك مظهر من مظاهر الازدواج في طبيعته، ناشئ من الحقيقة العظمى في كيانه: أنه قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله" [قطب، ١٩٩٣، ١٦١]، وإذا كان الجسد لا يمكن أن يعيش بدون ماء وهواء، كذلك فإن الروح لا يمكن أن تعيش بدون دين، فحاجة الإنسان إلى الدين أشد من حاجته إلى الماء والهواء، ومن هنا ينبغي فهم الإنسان على حقيقته والتعامل معه على هذا الأساس، فالإنسان مركب من مادة وروح، ولا يطلق عليه هذه التسمية إلا بهذه التركيبة، فعلم النفس الذي يدرس في جامعاتنا العربية هو علم غربي منبثق من

فلسفة ورؤية للإنسان مستمدة من تلك الفلسفات، وهي نظرة قاصرة؛ بدليل التناقضات بين تلك الفلسفات؛ وارتكازها على ركيزة واحدة وهو النفس(الجسد) فقط، وتجاهل الروح، والدين، فمن الضروري والحاجة الملحة أن يتم تناول ودراسة كل ما يتعلق بالإنسان من المنظور الإسلامي، ونقد كل ما يخالف أو يتعارض مع ديننا وقيمنا في هذا المجال؛ ولما لهذا المجال من انعكاسات خطيرة على مدخلات العملية التربوية والتعليمية، وعملياتها، ومخرجاتها، وبالتالي على الفرد والأسرة والمجتمع.

- **خصائص الإنسان:**

للإنسان خصائص عديدة ومن تدبر القرآن الكريم يدرك ذلك نورد منها:

-الإنسان خلق جهولا: فالإنسان يخرج من بطن أمه وهو يجهل كل شيء قال تعالى: {وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)} [الأحزاب]، {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)} [النحل].

-الإنسان لديه استعداد للعلم والكتابة قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)} [العلق]فهذا أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم وفيه دعوة للقراءة وتعلم الكتابة، وقال تعالى: {الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)} [الرحمن].

-الإنسان مخلوق ضعيف قال تعالى: { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)} [النساء].

-خلق الإنسان هلوعا قال تعالى: { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢)} [المعارج]، وقد جاء تفسير الهلع في الآية نفسها؛ فإذا أصابه مكروه كان سريع الجزع؛ وإذا مسه الخير كان سريع المن، واستثنى من هذه الخاصية المصلون.

-خلق الإنسان عجولا قال تعالى: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١)} [الإسراء]. {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)} [الأنبياء].

-الإنسان كنود كفور قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)} [العاديات] وقال تعالى: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧)} [عبس]، {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩)} [هود]

وبناء على ما تقدم؛ فإن الإنسان لديه استعدادات مزدوجة، استعداد للخير، واستعداد للشر قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)} [الشمس].

فالإنسان تتجاذبه قوتان قوة الفجور، وقوة التقوى، وهذا الطبع الفطري يتناسب مع هدف الابتلاء والامتحان {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)} [الملك]"{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} أي والخالق الرازق المصور؛ الذي سوى الإنسان، وأخرجه في أحسن تقويم. ومن تمام التسوية: أن ركب تعالى في النفس قواها الظاهرة والباطنة، وشد أسرها، وأمرها بما يصلحها، ونهاها عما يضرها، ووهبها العقل الذي تميز به بين الخير والشر، والتقوى والفجور ،{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} أي عرفها طاعتها ومعصيتها، وما ينجيها وما يرديها، وخلق فيها العقل والإدراك؛ اللذين تميز بهما بين الغث والثمين، والحسن والقبيح." [ابن الخطيب، ١٩٦٤،ج١، ٧٥١]، "ومن الطبيعي أن تتضمن طبيعة الإنسان وقوع الصراع بين الخير والشر، بين الفضيلة والرذيلة، بين طاعة الله ومعصيته، وإن الاختبار الحقيقي للإنسان في هذه الحياة هو ما تتجه إليه إرادته، وما يقع اختياره. هل سيختار طريق الخير أم طريق الشر، طريق طاعة الله أم معصيته؟ هل سينساق الإنسان وراء أهوائه وشهواته ومتع الحياة الدنيوية، ويغفل عن ذكر الله، وينسى اليوم الآخر، أم هل سيتحكم في أهوائه وشهواته، ويقوم بتحقيق التوازن بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية"[نجاتي،٢٠٠١، ٢٣١] وقد صنف الله النفس البشرية إلى ثلاثة حالات، نفس أمارة بالسوء {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ}[يوسف: ٥٣]، ونفس لوامة، {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)} [القيامة: ٢]، ونفس مطمئنة {يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨)} [الفجر]، فمن تحكم في نفسه وهواها فاز وأفلح، ومن أطلق لنفسه عنانها واتبع هواها خسر خسرانا مبينا، قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)} [النازعات].

فالإنسان "مخلوق مزود بطاقات من أبرزها طاقة المعرفة وطاقة الإرادة الضابطة، وطاقة القوة الفاعلة المتضمنة معنى الخلافة ومقتضياتها، وطاقة الصراع، والقدرة على التوجه إلى الله وتلقي كلماته وتتبع هداه، والقدرة كذلك على الاستقرار والمتاع. وهو مخلوق مشتمل على نقطة ضعف هي: حب الشهوات، ونسيان العهد، ونسيان الهدى والكفر بآيات الله، وهو مخلوق ذو طبيعة مزدوجة، فيه القدرة على الارتفاع إلى أقصى المدى، والقدرة على الهبوط إلى الحضيض" [قطب،١٩٩٣، ٣٣ -٣٤].

وجاءت آيات توكد أن لدى الإنسان قدرات كامنة واستعدادات لاختيار طريق الخير أو طريق الشر، {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)} [البلد] "أي بينا له طريق الخير والشر والسعادة والشقاء بما أودعنا في فطرته وبما أرسلنا به رسلنا وأنزلنا به كتبنا" [الجزائري، ٢٠٠٣، ج٥، ٥٧٣].

وقال تعالى:{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)} [الإنسان]، "وعبر عن الهدى بالشكر؛ لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدي، بعد إذ يعلم أنه لم يكن شيئا مذكورا، فأراد ربه له أن يكون شيئا مذكورا. ووهب له السمع والبصر. وزوده بالقدرة على المعرفة. ثم هداه السبيل. وتركه يختار.. الشكر هو الخاطر الأول الذي يرد على القلب المؤمن في هذه المناسبة. فإذا لم يشكر فهو الكفور.. بهذه الصيغة الموغلة في الدلالة على الكفران." [إبراهيم، ١٤١٢ه،ج٦، ٣٧٨٠]

لم يقتصر الأمر عند التكوين وما أودعه الله فيه من قدرات واستعدادات، بل أرشده في كتابه المنزل وبرسوله المرسل قال تعالى: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) } [طه] "{وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي} أَيْ: خَالَفَ أَمْرِي، وَمَا أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَسُولِي، أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هُدَاهُ {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} أَيْ: فِي الدُّنْيَا، فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ، وَلَا انْشِرَاحَ لِصَدْرِهِ، بَلْ صَدْرُهُ [ضَيِّقٌ]حَرَج لِضَلَالِهِ، وَإِنْ تَنَعَّم ظَاهِرُهُ، وَلَبِسَ مَا شَاءَ وَأَكَلَ مَا شَاءَ، وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ، فَإِنَّ قلبه مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْهُدَى، فَهُوَ فِي قَلَقٍ وَحَيْرَةٍ وَشَكٍّ، فَلَا يَزَالُ فِي رِيبَةٍ يَتَرَدَّدُ. فَهَذَا مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ." [ابن كثير، ج٥، ٣٢٢ -٣٢٣]، وقد حاول علماء النفس في الغرب البحث عن أسباب الاضطراب النفسي، وأرجعوا ذلك لأسباب مادية بحته، ويرجع ذلك لقصور تصورهم لحقيقة الإنسان.

فالتربية السليمة لإنسان سوي وسطي؛ لا يمكن تحقيقها بعيدا عن منهج الله تعالى، وسيظل الإنسان بشكل فردي أو جماعي يعاني من الضنك بكل أشكاله وأنواعه عندما ينحرف أو يكون بعيدا عن منهج الله، وبقدر البعد أو الانحراف عنه يكون حظه من الضنك.

- **العوامل المؤثرة في الفروق الفردية:**

تتعدد المؤثرات وفقا للأحوال والأحداث والزمان فتختلف من شخص لآخر ومن بيئة لأخرى، ومن مجتمع لآخر، ونجمل أهم العوامل المؤثرة من خلال الاستقراء للنصوص القرآنية والنبوية في الآتي:

- **العامل الوراثي:** الوراثة هي: "انتقال الصفات من الآباء والأجداد إلى الأبناء عن طريق الموروثات أثناء تكوين البويضة المخصبة"[الشيخ، ٢٠٠٨، ٥٢].

لقد ورد في الكتاب العزيز وفي السنة النبوية ما يثبت هذا العامل وأثره في حياة الفرد، قال تعالى: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)} [الأعراف] "أَيِ التُّرْبَةُ الطَّيِّبَةُ. وَالْخَبِيثُ الَّذِي فِي تُرْبَتِهِ حِجَارَةٌ أَوْ شَوْكٌ، عَنِ الْحَسَنِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ التَّشْبِيهُ، شَبَّهَ تَعَالَى السَّرِيعَ الْفَهْمَ بِالْبَلَدِ الطَّيِّبِ، وَالْبَلِيدَ بِالَّذِي خَبُثَ، عَنِ النَّحَّاسِ." [القرطبي، ١٩٦٤، ج٧، ٢٣١] " واعلم أن من طابت أحواله انتفع بكل ما سمعه وشاهده إن خيرا وإن شرا، ومن خبثت أحواله استضر بكل ما سمعه وشاهده، وعلى ذلك دل قوله تعالى: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا } [الأعراف: ٥٨]" [جاد المولى، ج١، ٢٤٢]. "إذا زكا الأصل نما الفرع، وإن خبث الجوهر لم يطب ما تحلّل منه، وإن طاب العنصر فالجزء يحاكى أصله، والأسرّة تدل على السريرة، فمن صفا باطن قلبه زكا ظاهر فعله، ومن كان بالعكس فحاله بالضد." [القشير، ج١: ٥٤٢].

فحالة الأم النفسية أثناء الجماع أو الأب أو هما معا يؤثر على تكوين الجنين، وكذا ما تتعرض له الأم أثناء الحمل من أحداث أو في النظام الغذائي أو العلاجي، وقد جاء في الحديث " لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنْ قُدِرَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّ ذَلِكَ الْوَلَدَ الشَّيْطَانُ أَبَدًا "[ابن حنبل، الحديث رقم ١٨٦٧، ج٣، ٣٦١].

فالطفل يرث من أبويه وأجداده بعض خصائصهم وصفاتهم، كالطول والقصر، واللون، والشدة واللين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنَّى كَانَ ذَلِكَ» قَالَ: أُرَاهُ عِرْقٌ نَزَعَهُ، قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ»[البخاري، الحديث رقم٦٨٤٧، ج٨، ١٧٣]،في الحديث دلالة واضحة على ثبوت العامل الوراثي في المنظور الإسلامي، وهذا ليس بالشيء الجديد؛ بل كان معروفا لدى عامة الناس؛ ولذلك عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي عن اللون الغريب في ابله (الأورق)، فأجاب لعله نزعه عرق أي من آبائه وأجداده.

ويقول تعالى:{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)} [الإنسان: ٢] "والأمشاج: الأخلاط. وربما كانت هذه إشارة إلى تَكَوُّن النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح.

وربما كانت هذه الأخلاط تعني الوراثات الكامنة في النطفة، والتي يمثلها ما يسمونه علميا «الجينات» وهي وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا ولصفات الجنين العائلية أخيرا. وإليها يعزى سير النطفة الإنسانية في رحلتها لتكوين جنين إنسان، لا جنين أي حيوان آخر. كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة في الأسرة.. ولعلها هي هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى.. خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج، لا عبثا ولا جزافا ولا تسلية، ولكنه خلق ليبتلى ويمتحن ويختبر " [إبراهيم، ١٤١٢هـ، ج٦، ٣٧٧٩ –٣٧٨٠]، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن العامل الوراثي يبدأ من عملية الإخصاب، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: هَلْ تَغْتَسِلُ الْمَرْأَةُ إِذَا احْتَلَمَتْ وَأَبْصَرَتِ الْمَاءَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ: تَرِبَتْ يَدَاكِ وَأُلَّتْ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «دَعِيهَا. وَهَلْ يَكُونُ الشَّبَهُ إِلَّا مِنْ قِبَلِ ذَلِكِ، إِذَا عَلَا مَاؤُهَا مَاءَ الرَّجُلِ، أَشْبَهَ الْوَلَدُ أَخْوَالَهُ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَهَا أَشْبَهَ أَعْمَامَهُ» [النيسابوري، الحديث رقم ٣٣، ج١، ٢٥١].

واللبن يؤثر على تكوين الطفل ونمائه وصحته؛ لذلك أمر الله الأم أن ترضع طفلها حولين كاملين، قال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ} [البقرة: ٢٣٣]، عن عائشة رضي الله عنها رفعت الْحَدِيثَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وأنا أهاب رفعه قال: لا تسترضعوا الحمقاء فإن اللبن يورث." [البزار، ٢٠٠٩، ج١٨، ١٠٣].

العامل البيئي:

معنى البيئة: يقصد بها البيئة السيكولوجية، وهي مجموعة من المثيرات التي يتعرض لها الفرد طوال حياته، أي من بدء وجوده في الرحم كبويضة مخصبة، حيث بداية الحياة حتى مماته"[الشيخ، ٢٠٠٨، ٣٦]، فالبيئة بشقيها الطبيعية والاجتماعية، ويقصد بالبيئة الطبيعية: " الظروف المادية المحيطة بالفرد من عوامل جغرافية ومكانية؛ كالطقس والمناخ، وموارد وإمكانات مادية تؤثر على نمو الفرد"[عبد المعطي، وقناوي، ج١، ١٢٥]، فالبيئة لها تأثير على نمو الفرد ماديا، ومعنويا، فالبيئة الحارة غير الباردة، والساحلية غير الجبلية، والبيئة المتحضرة غير النامية.

ويقصد بالبيئة الاجتماعية: "مجموعة التفاعلات القائمة بين الفرد والجماعات التي ينتمي إليها في السياق الاجتماعي؛ إذ تعتبر شخصية الفرد نتاجًا لعملية التفاعل بين الفرد وبيئته الاجتماعية، من خلال

عملية التنشئة الاجتماعية التي تعتبر من أهم العمليات الاجتماية في تأثيرها على نمو الفرد على الإطلاق؛ إذ يؤثر نموذج الحياة الاجتماعية وأشكال العلاقات بين أفراد الجماعة وما يشيع بينهم من عادات وتقاليد وقيم، وما يعيشونه من نظم تنسق هذه العلاقات الاجتماعية في تشكيل بعض الخصائص العامَّة للشخصية. "عبد الرحمن سليمان، ١٩٩٧، ٥٢٤".

والبيئة تختلف من مجتمع لآخر ومن عصر لعصر ومن زمان لزمان آخر "فالبيئة التي يسودها الحق والعدل والخير والنظام، غير البيئة التي يشيع فيها الباطل والظلم والشر والانحراف، والبيئة التي يكرم فيها الإنسان وتعلى إنسانيته غير تلك التي يسلب فيها حقه وتداس كرامته وتهدر إنسانيته"[الأسمر،٢٠٠١، ٩٦]، وعندما اشتد أذى قريش للصحابة أذن النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالهجرة إلى الحبشة؛ لأن فيها ملِكًا لا يظلم الناس، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن فيها ملِكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه»[السباعي، ١٩٨٥، ٤٧] وحديث الرجل الذي قتل تسعا وتسعين نفسا ثم وفى المئة وجاء فيه، "فَقَالَ: إِنِّي قَتَلْتُ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، اخْرُجْ مِنَ الْقَرْيَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ قَرْيَةِ كَذَا وَكَذَا، فَاعْبُدْ رَبَّكَ فِيهَا"[ابن حنبل، الحديث رقم ١١١٥٤، ج١٧، ٢٤٥]. يتبين من الحديث أثر البيئة الفاسدة والصحبة على سلوك الفرد، وأن التوبة تقتضي الإقلاع عن الذنب، وبقاء الفرد في المكان الذي ارتكب فيه الذنب مدعاة للعودة إليه مرة أخرى.

ومن عناصر البيئة الأسرة، والأصدقاء، والمؤسسات المجتمعية، كالمدرسة، والنادي، والإعلام بوسائله المتنوعة، والشبكة العنكبوتية، ووسائل الاتصال الاجتماعي، وغيرها.

وإن المشاركة والمصاحبة تورث المشاكلة في الطباع ويؤكد هذا ابن تيمية بقوله:" أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبا وتشاكلا بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، وهذا أمر محسوس؛ فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة – مثلا – يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه متقاضيا لذلك، إلا أن يمنعه مانع .

ومنها: أن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدى والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين."[ابن تيمية، ١٩٩٩، ج١، ٩٣].

العلاقة بين المؤثرات الوراثية والبيئية:

العلاقة بين العوامل الوراثية والبيئية علاقة تفاعلية تكاملية، فقد خُلق الإنسان على الفطرة قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)} [الروم] وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ» [البخاري، الحديث رقم١٣٨٥، ج٢، ١٠٠] "فإن الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين"[الغزالي، ١٩٩٦، ج٣، ١٠٧].فبيئة الطفل تؤثر في توجهه، وفي نفس الوقت لديه استعداد للتفاعل مع بيئته، وإلا لما استجاب لها وتفاعل معها؛ لذا حرص الإسلام على تكوين بيئة صالحة للطفل، وذلك باختيار الرجل للزوجة الصالحة، وكذلك المرأة تختار صاحب الخلق والدين، وقد نهى الله عن نكاح المشركات أو المشركين، قال تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ}[البقرة: ٢٢١] وأمر بنكاح الأيامى والصالحين فقال: {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢)} [النور] حرصا على تكوين أسرة صالحة وبيئة مناسبة للطفل.

ويقول علماء النفس التربوي: "إن السلوك هو محصلة عاملين هما الوراثة والبيئة، ومن تفاعل الوراثة(وما ينتج عنها من نمو) مع البيئة(ومع ما ينتج عنها من تعلم) يحدث السلوك الذي نرغب فيه في المتعلم (Cornbleth,1991)، وقد ورد في القرآن والسنة النبوية نصوص كثيرة تبين أنوعا وصورا للبيئة بشقيها الطبيعي والاجتماعي، النوع الأول: البيئة الطبيعية كالليل، والنهار، والجبال، والأشجار، والأنهار، والوديان، والبلدان، والبحار، والرياح والسحب، والزروع والثمار، والأنعام وغيرها،{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) } [الأنعام]، {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا

لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) [النحل].

والنوع الثاني: البيئة الاجتماعية كالأسرة، والعشيرة، والاصحاب، والثقافة، والعادات والتقاليد، ومؤسسات المجتمع المختلفة وهذا على سبيل المثال لا الحصر، {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)} [التحريم]،{ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)}[المجادلة]، {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)}[الزخرف]،{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩)} [الفرقان]،{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) {يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧)} [الصافات]ومن السنة "الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِطُ "[ابن حنبل، الحديث رقم ٨٠٢٨، ج١٣، ٣٩٨]." مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً "[البخاري، الحديث رقم ٥٥٣٤، ج٧، ٩٦].

وللثقافة والعادات والتقاليد أثر على الفروق الفردية ونوعية السلوك، فلها "تأثير عميق على الفرد، حيث تعمل مع العوامل الأخرى على تشكيل شخصيته، فما من سلوك تعلمه الفرد إلا وللثقافة دور في تشكيله، فالأمريكيون مثلا يناولون الطعام بالشوكة والسكين، بينما يتناوله الصينيون بزوج من العصي الصغيرة، في

حين يتناوله العرب بأصابعهم، بعض الناس يتعلمون شراء ما يحتاجونه لغذائهم اليومي من السوبر ماركت، في حين يلجأ البعض الآخر إلى زراعة ما يحتاجونه" [الريماوي، ١٩٩٤، ٣١٣].

ويمكن القول بأن هناك سننا وقوانين تحكم العوامل الوراثية والبيئية، وهذه السنن والقوانين تعمل وتؤثر بإرادة الله تعالى، وقد لا تعمل ولا تؤثر، وهناك أدلة من الكتاب العزيز تبين هذا، على سبيل المثال: فمن سنن الإنجاب التزاوج، وقد يحدث الزواج ومع ذلك لا يحصل إنجاب {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)} [الشورى]، ويمكن التغلب على التأثير البيئي، فامرأتي نوح ولوط كانتا في بيت النبوة، فالبيئة صالحة ومع ذلك كانتا كافرتين، بينما كانت امرأة فرعون في بيئة فاسدة، ومع ذلك كانت صالحة، وكذا الوراثة فمن أولي العزم من الرسل إبراهيم الخليل عليه السلام، وأبوه كافر، وكذا محمد صلى الله عليه وسلم مات أبوه كافرا، ونوح عليه السلام ولده كافر ولم يؤمن به، ونخلص إلى أن تناول الفروق الفردية، بصورة جزئية، أو من زوايا معينة، تكون النتائج قاصرة ولا تعبر عن الحقائق، ولابد من النظرة الكلية للفرد والعوامل المؤثرة فيه والمؤثر فيها، كمنظومة متكاملة، فقد يغلب تأثير معين في وقت ما، وقد لا يكون له نفس التأثير في وقت آخر أو مع فرد آخر، وهذا ما يميز المنظور الإسلامي؛ أي: أنه ينظر إلى الفرد كمنظومة صغيرة في إطار منظومة كبيرة.

ومع إثبات الفروق الفردية في المنظور الإسلامي، وتأثير العوامل البيئية والثقافية، والوراثية فيها، فقد ثبت أن هناك عاملا آخر أكثر تأثيرا وهو العامل العقدي، فتصور الفرد لمصدر الوجود وعلاقته بخالقه، وحقيقة الإنسان وعلاقته بالآخرين بمختلف توجهاتهم وعقائدهم، وحقيقة الكون وعلاقته به، وحقيقة الحياة وعلاقته بها، كل هذا يؤثر في الفروق الفردية.

عرض نتائج البحث:

للإجابة عن السؤال الأول ونصه: "ما التأصيل الإسلامي للفروق الفردية؟"

تم استقراء النصوص القرآنية والنبوية ذات العلاقة بموضوع البحث وتوصل إلى الآتي:

يعد الاختلاف بين المخلوقات سنة من سنن الله تعالى في خلقه، قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)} [فاطر] وفي الحديث: "تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ، إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ

النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ، وَيَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ"[البخاري، الحديث رقم ٣٤٩٤، ج٤، ١٧٨].

ووضع الإنسان في محك الابتلاء والامتحان، قال تعالى:{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) }[الأنعام]. "(ورفع بعضكم فوق بعض درجات) في الخلق والرزق والقوة والضعف والعلم والعقل والجهل والحسن والقبح والغنى والفقر والشرف والوضع، وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز أو الجهل أو البخل، فإن الله سبحانه منزه عن صفات النقص. وإنما هو (ليبلوكم فيما آتاكم) أي ليختبركم في تلك الأمور، ويعاملكم معاملة المبتلى والمختبر، وهو أعلم بأحوال عباده منهم أو ليبلي بعضكم ببعض كقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً } [الفرقان: ٢٠]."[صديق خان، ١٩٩٢، ج٤، ٢٩٥].

وقال تعالى:{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)} [الروم]، فخلق الله الناس مختلفين ومتفاوتين في قدراتهم وخصائصهم؛ لأن الفرد لا يستطيع أن يقوم بذاته ولا يحتاج لغيره، فهذا خاص بالله وحده هو القائم بذاته، أما المخلوق فلا يستغني عن غيره، وكلما زاد غناه أو مكانته ومسؤوليته ازداد احتياجه للآخرين، وهذا دليل على وحدانية الله تعالى؛ لذلك تعددت وتنوعت قدرات البشر، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا؛ ولإعمار الأرض،" فتنوع المخلوقات بأشكال شتى، وطبائع مختلفة، ومنافع متعددة، مع أن منشأها واحد وهو الماء، وتركيبها مختلف، ويخلق الله من الماء ما يشاء وما لا نعلم به إلى الآن، بالرغم من تعدد الاكتشافات العلمية إذ أول ما خلق الله من العالم الماء، ثم خلق منه كل شيء، وقدرة الله فوق الحصر والعد، وأغرب من السمع والبصر."[الزحيلي، ١٤١٨، ج١٨، ٢٦٩].

- **طبيعة الفروق الفردية:**

خلق الله الإنسان بشكل مزدوج من تراب وروح ، {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)} [ص]وجعلهم مختلفين في معتقداتهم، {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢)} [التغابن] وجعلهم متفاوتين في قدراتهم، واستعداداتهم، وخصائصهم، وحاجاتهم؛ لذا "يميز العلماء بين نوعين من الفروق : فروق في النوع وفروق في

الدرجة، فالفرق في النوع يوجد بين الصفات المختلفة، أما الفروق في الدرجة، فهو ما نلاحظه من اختلافات بين الأفراد في – الصفة – الواحدة"[الشيخ، ٢٠٠٨، ٣١ –٣٢].

{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)} [الزخرف] {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١)} [النحل: ٧١] {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)} [النساء: ٣٢] {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [النساء: ٣٤].

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)} [البقرة] {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥)} [الإسراء]{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)} [الإسراء].

"{انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} فِي الدُّنْيَا، فَمِنْهُمُ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَمَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا، وَمَنْ يُعَمَّرُ حَتَّى يَبْقَى شَيْخًا كَبِيرًا، وَبَيْنَ ذَلِكَ {وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا} أَيْ: وَلَتَفَاوُتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَكَاتِ فِي جَهَنَّمَ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَجَاتِ العُلَى وَنَعِيمِهَا وَسُرُورِهَا، ثُمَّ أَهْلُ الدَّرَكَاتِ يَتَفَاوَتُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ يَتَفَاوَتُونَ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ."[ابن كثير، ج٥، ٦٣] وَفِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ

الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ»"[البخاري، الحديث رقم ٣٢٥٦،ج٤، ١١٩]؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)} [الإسراء].

وقد تبين من خلال النصوص الآتي:

-اتفاق الأفراد في أصل نوع الفروق التكوينية، كالقدرات العقلية والاستعدادات، والطول، والحجم، واللون، ويتفاوتون في درجاتها، فقد خلق الله الإنسان وقدره، وصوره، {يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)}[الانفطار] {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)} [التين: ٤]"فقد مُيِّز الإنسان باستواء لا يتميز به غيره، وأهله خالقه بمجموعة كبيرة من المؤهلات والقدرات، من قوى مدركة، عاقلة مفكرة مبدعة، ومن طاقات واستعدادات ومواهب وملكات لا تتسنى لغيره من المخلوقات"[الأسمر، ٢٠٠١، ٣١].

-أن الاختلاف بين الذكور والإناث تكويني، وتفاضلي، أي في النوع والدرجة، تفاوت في القدرات والاستعدادات والخصائص والصفات وفي التكوين النفسي.

-اختلاف الأفراد في معتقداتهم، وقيمهم، واتجاهاتهم، وميولهم، وخصائصهم، ودوافعهم، تبعا لاختلاف أصنافهم في المعتقد، (مؤمن، كافر، منافق).

-تتفاوت القدرات والاستعدادات والصفات في كل صنف، فالمؤمنون منهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات.

-تفاوت بين الرسل في قدراتهم وخصائصهم، ومنزلتهم، ففضل الله بعضهم على بعض.

-تتفاوت منازل الناس في الآخرة تبعا لتفاوت أعمالهم في الدنيا (الجنة درجات، والنار دركات).

- **الاختلاف بين المخلوقات سنة من سنن الله:**

خلق الله الخلق وفضل بعضهم على بعض، خلق الأرض وفضل المساجد على بقيتها، وفضل المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى على سائر المساجد؛ فلا تشد الرحال إلا إليها، وفضل الأشهر الحرم على سائر الأشهر، وفضل شهر رمضان على الأشهر كلها، وفضل أيام عشر ذي الحجة على سائر الأيام، وفضل ليلة القدر على سائر الليالي، وخلق الله الإنسان وكرمه وفضله على كثير من مخلوقاته، وفضل الأنبياء على سائر الناس، وفضل أولو العزم من الرسل على سائر الأنبياء والرسل، وفضل محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء والرسل.

وخلق الله تعالى الخلق في عوالمهم مختلفين، ومتباينين في الأشكال والألوان والأحجام والطباع، لحكمة وغاية عظيمة، وجاءت طبيعة الإنسان متسقة مع بقية المخلوقات تؤثر فيها وتتأثر بها تعمل كمنظومة واحدة في هذا الكون الفسيح، لكن الإنسان هو العنصر الأكثر فاعلية داخل المنظومة لما حباه الله تعالى من تميز وتكريم وتفضيل، فهو محور التغيير نحو البناء والتعمير، أو الفساد والتدمير {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم} [الرعد: ١١]{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) } [الروم]؛ وسوف نركز على الفروق الفردية بين بني الإنسان وهي على النحو الآتي:

أ.فروق في المستويات العقلية: الاختلاف أصل في الناس وذلك لتفاوت قدراتهم العقلية، " هذه المنحة الالهية العظيمة التي اختص بها الإنسان ليست بمقدار واحد عند جميع أفراده، بل شاء الله تعالى أن تختلف باختلاف الأفراد وتتباين، وتتفاوت مراتبها عندهم وتتفاضل" [جاد المولى، ج١، ٢٣٨] قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } [هود: ١١٨، ١١٩] وقد تكرر ذكر العقل في القرآن الكريم والثناء على من يعقل {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣)}[العنكبوت] ونتيجة لهذا التفاوت تباين الناس في فهمهم للنصوص، أو الصور، أو الحدث، أو الكلام، فقد اختلف فهم الصحابة رضي الله عنهم لتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم لهم يَوْمَ الأَحْزَابِ بقوله : "لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ" فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ العَصْرَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ"[البخاري، الحديث رقم ٤١١٩، ج٥، ١١٢]، فالبعض فهم أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما حثهم على سرعة السير وأما وقت الصلاة فمتى دخل وقتها صلوا، فصلوا على ركابهم، والبعض الآخر فهم ظاهر النص من التوجيه وأنهم معذورون حتى يصلوا إلى بني قريظة، ولما أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما حصل من خلاف لم يعنف واحدا منهم، فقدر اختلافهم في الفهم وحسن مقصد كل فريق، وحرصهم على تطبيق التكاليف، فالغاية واحدة، والمراد واحد وهو طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى المربين والمعلمين الاستفادة من هذا الدرس العظيم في التعامل مع طلبتهم ومع من يربون، "ففهم المعلم للنمو العقلي، ونمو الذكاء والقدرات الخاصة والاستعدادات والتفكير، والتذكر والتخيل، والقدرة على التحصيل لكل تلميذ، يؤدي به إلى الوصول إلى أفضل طرق التدريس؛ فيستطع الأخذ بيد التلميذ الضعيف، ويشجِّع المتفوق،

ويخص هذا الثالث المتخلِّف بمنهج معيِّن، وقد يعزله عن بقية الفرقة.. إلخ. وما ذلك إلّا لأنَّ التلاميذ أمامه يتفاوتون في مختلف مجالات نموهم واستعداداتهم" [كمال دسوقي، ١٩٧٩، ١٣ -١٥].

ب. فروق في استعدادهم لقبول الحق: نتيجة لتفاوت الناس في مستوياتهم العقلية والنفسية، فقدمكن الله الإنسان القدرة على التمييز بين الحق والباطل{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)}[الشمس].

"إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه (من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه) مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال. فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر. كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء. وأن هذه القدرة كامنة في كيانه، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة: «وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها، فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها» .. ويعبر عنها بالهداية تارة: «وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ» .. فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد.. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك. ولكنها لا تخلقها خلقا. لأنها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعا، وكامنة إلهاما." [إبراهيم، ج٦، ٣٩١٧] "فإذا تعمقنا النظر، وجدنا الشمس تمثل العقل، والقمر يمثل الضمير، الذي تستضيء بصيرته من العقل، كما يستمد القمر نوره من الشمس.. وللعقل شروق وغروب. فإذا اتجه إلى الحق أسفر عن وجهه وكان نهارا مبصرا، يتحرك الإنسان فيه على هدى وبصيرة.. وإذا اتجه إلى الباطل غربت شمسه، وأطبق ليله، وعمّيت على صاحبه السبل، ودرست معالمها.." [الخطيب، ج١٦، ١٥٨٣]. "ومن تمام التسوية: أن ركب تعالى في النفس قواها الظاهرة والباطنة، وشد أسرها، وأمرها بما يصلحها، ونهاها عما يضرها، ووهبها العقل الذي تميز به بين الخير والشر، والتقوى والفجور" [ابن الخطيب، ١٩٦٤، ج١، ٧٥١].

قَالَ صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» [البخاري، ١٤٢٢ه، الحديث رقم ٧٩، ج١، ٢٧] فالناس ثلاثة أصناف: الصنف الأول انتفع بعلمه

فعلم وعلم، والثاني: لم ينتفع بعلمه فحفظ وانتفع الآخرون به، والثالث ليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية فلا يسمعوا العلم فينتفعوا به ولا يحفظونه فينتفع به غيرهم.

أ. فروق جسدية: يختلف الأفراد في النموّ الجسمي في الجوانب المختلفة، كالطول والحجم ولون البشرة وكذلك في صحتهم العامة، يقول الله تعالى . في قصة بني إسرائيل: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)} [البقرة]قال الإمام الشوكاني شارحاً هذا المعنى: «بيّن (الله) لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ وَجْهَ الِاصْطِفَاءِ: بِأَنَّ اللَّهَ زَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ، الَّذِي هُوَ مَلَاكُ الْإِنْسَانِ، وَرَأْسُ الْفَضَائِلِ، وَأَعْظَمُ وُجُوهِ التَّرْجِيحِ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْجِسْمِ الَّذِي يَظْهَرُ بِهِ الْأَثَرُ فِي الْحُرُوبِ وَنَحْوِهَا، فَكَانَ قَوِيًّا فِي دِينِهِ وَبَدَنِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْمُعْتَبَرُ، لَا شَرَفُ النَّسَبِ. فَإِنَّ فَضَائِلَ النَّفْسِ مُقَدَّمَةٌ عَلَيْهِ" [فتح القدير، ١٤١٤، ج١، ٣٠٣]، وهذا الاختلاف يؤدي إلى تفاوت أداء الأفراد في المجالات المختلفة، تعليمية أو وظيفية أو مهنية، فمن يعاني . مثلاً: من إعاقة حركية لا يكون مثل السوي، وكذا المعاقون سمعيا أو بصريا لن يكونوا على نفس المستوى في التحصيل الدراسي أو في أنشطتهم وميولهم، فينبغي على القائمين على العملية التربوية والتعليمية مراعاة الفروق الجسمية بين المتعلّمين، وذلك بتكليف كل بما يحسنه ويتناسب مع قدراته الجسمية.

ب. فروق اقتصادية: يتفاوت الأفراد في الرزق فقد فضل الله بعضهم على بعض لحكمة الابتلاء قال تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١)} [النحل] يقول الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية: "وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَجَعَلَكُمْ مُتَفَاوِتِينَ فِيهِ فَوَسَّعَ عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ حَتَّى جَعَلَ لَهُ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي أُلُوفًا مُؤَلَّفَةً مِنْ بَنِي آدَمَ، وَضَيَّقَهُ عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ حَتَّى صَارَ لَا يَجِدُ الْقُوتَ إِلَّا بِسُؤَالِ النَّاسِ وَالتَّكَفُّفِ لَهُمْ، وَذَلِكَ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ تَقْصُرُ عُقُولُ الْعِبَادِ عَنْ تَعَقُّلِهَا وَالِاطِّلَاعِ عَلَى حَقِيقَةِ أَسْبَابِهَا، وَكَمَا جَعَلَ التَّفَاوُتَ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي الْمَالِ جَعَلَهُ بَيْنَهُمْ فِي الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْفَهْمِ وَقُوَّةِ الْبَدَنِ وَضَعْفِهِ وَالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ وَالصِّحَّةِ وَالسُّقْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ"[الشوكاني، ١٤١٤، ج٣، ٢١٣] والرزق ليس مقصورا على المال فقط فشخص يرزقه الله علما وآخر صحة، وذكاء، وكل موهبة ينالها الإنسان تعد رزقا." لو نظرنا إلى الكون من حولنا لوجدنا أننا لا نتساوى إلا

في شيء واحد فقط، هو أننا عبيدٌ لله. . نحن سواسية في هذه فقط، وما دون ذلك فنحن مختلفون فيه، تختلف ألواننا، تختلف أجسامنا. . صورنا. . مواهبنا. . أرزاقنا."[الشعراوي، ج١٣، ٨٠٦٥].

ويقول الله . عزَّ وجلَّ .: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)} [الإسراء]"الله الذي لا تنفد خزائنه يعطي خلْقه بقدَرٍ، فلا يبسط لهم الرزق كل البَسْط، ولا يقبضه عنهم كُلَّ القَبْض، بل يبسط على قوم، ويقبض على آخرين لتسير حركة الحياة؛ لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناس عن الناس، وحدثت بينهم مقاطعة تُفسد عليهم حياتهم. إنما حركة الحياة تتطلب أنْ يحتاج صاحب المال إلى عمل، وصاحب العمل إلى مال، فتلتقي حاجات الناس بعضهم لبعض، وبذلك يتكامل الناس، ويشعر كل عضو في المجتمع بأهميته ودوره في الحياة."[الشعراوي، ج١٤، ٨٤٨٤].والرزق ليس دليل على تكريم صاحبه، فالله يرزق البر والفاجر وقد رد الله على إبراهيم الخليل عليه السلام عندما دعا الله أن يقصر الرزق على المؤمنين قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)} [البقرة].

ويقول الإمام البقاعي: "ولما كان سبب البخل خوف الفقر، وسبب البسط محبة إغناء المعطي، قال مسلياً لرسوله صلى الله عليه وسلم عما كان يرهقه من الإضافة عن التوسعة على من يسأله بأن ذلك إنما هو لتربية العباد بما يصلحهم، لا لهوان بالمضيق عليه، ولا لإكرام للمسوع عليه: {إن ربك}أي المحسن إليك {يبسط الرزق لمن يشاء} البسط له دون غيره {ويقدر} أي يضيق كذلك سواء قبض يده أو بسطها {ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض} [الشورى: ٢٧] ولكنه تعالى لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده، ولا بالمقبوض عنه أقصى مكروهه، فاستنوا في إنفاقكم على عباده بسنته في الاقتصاد {إنه كان} أي كوناً هو في غاية المكنة {بعباده خبيراً} أي بالغ الخبر {بصيراً } أي بالغ البصر بما يكون من كل القبض والبسط لهم مصلحة أو مفسدة."[البقاعي، ج١١، ٤٠٧ –٤٠٨].

والفروق الاقتصادية لها انعكاسات واضحة على الأفراد، فنجد الفرد الغني الحريص على التظاهر بغناه في مأكله وملبسه وأدواته، والفرد الفقير يظهر في ملبسه ومأكله وأدواته، ومن هنا تظهر أهمية دور المعلِّم في مراعاة هذه الفروق بينهم، وذلك من خلال معاملتهم على أساس من العدل والمساواة، فلا فرق بين الفرد الغني والفرد الفقير؛ بل ينبغي مراعاة حال الفرد الفقير في التكاليف والأنشطة التي تتطلب مالا.

ج. **فروق في النوع:** فجعل الله الخلق زوجين الذكر والأنثى {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)} [الحجرات] وهذا التنوع مهم لاستمرار الحياة وتكامل الناس فيما بينهم وليس للتفاضل والتفاخر، ومهمة كل نوع تختلف عن النوع الآخر {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} [آل عمران: ٣٦] "فالأنثى ليست كالذكر في تركيبها الجسمي، ولا في تركيبها النفسي، ومن ثم فلا بد أن تكون وظيفتها الحياتية تختلف عن وظيفة الذكر، ولا بد أن يترتب على ذلك اختلاف في المسؤوليات، واختلاف في الحقوق والواجبات، ومن أراد المساواة المطلقة بين الرجال والنساء، فليسوِّ بينهما في التركيب الجسمي والنفسي أولا ثم فليطالب" [حوى، ١٩٨٥، ج٢، ٧٦٢]، فالعلاقة بين الذكور والإناث علاقة تكاملية، مبنية على البر مع الوالدة، وعلى الحب والمودة مع الزوجة، وعلى الصلة والمحبة مع الأخوات والبنات، وليست علاقة صراع كما يصوره بعض العلمانيين، فقد ساوى الإسلام بين الذكور والإناث في الحرية، وحق الحياة، وفي أصل الخلق، وفي أصل التكيف الشرعي فكل منهما مكلف ومحاسب، وفي الحقوق والواجبات وفي الجزاء، وفي الدماء والحدود، وفي التملك والعقود والتصرفات المالية، ومع ذلك فإن هناك اختلافا في التكوين الخَلْقي، ترتب عليه اختلاف في الخصائص والوظائف والمهام.

"إن المنهج الإسلامي يتبع الفطرة في تقسيم الوظائف وتقسيم الأنصبة بين الرجال والنساء. والفطرة ابتداء جعلت الرجل رجلاً والمرأة امرأة وأودعت كلاً منهما خصائصه المميزة لتنوط بكل منهما وظائف معينة.. لا لحسابه الخاص. ولا لحساب جنس منهما بذاته. ولكن لحساب هذه الحياة الإنسانية التي تقوم، وتنتظم، وتستوفي خصائصها، وتحقق غايتها – من الخلافة في الأرض وعبادة الله بهذه الخلافة – عن طريق هذا التنوع بين الجنسين، والتنوع في الخصائص والتنوع في الوظائف.. وعن طريق تنوع الخصائص، وتنوع الوظائف، ينشأ تنوع التكاليف، وتنوع الأنصبة، وتنوع المراكز.. لحساب تلك الشركة الكبرى والمؤسسة العظمى.. المسماة بالحياة.."[إبراهيم، ١٤١٢، ج٢، ٦٤٣] .

- **خصائص يختص بها الذكر دون الأنثى منها:**

-يرث ضِعْف الأنثى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} [النساء: ١١]فالذكر من الأولاد يرث ضعف الأنثى.

-أداء الشهادة: {وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى} [البقرة: ٢٨٢]فشهادة الرجل بشهادة امرأتين.

-حق الطلاق: {لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)} [البقرة].

-حق القوامة:{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِم} [النساء: ٣٤]. " ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ تَفْضِيلَهُمْ عَلَيْهِنَّ فِي الْإِرْثِ لِمَا عَلَى الرِّجَالِ مِنَ الْمَهْرِ وَالْإِنْفَاقِ، ثُمَّ فَائِدَةُ تَفْضِيلِهِمْ عَائِدَةٌ إِلَيْهِنَّ. وَيُقَالُ: إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ فَضِيلَةٌ فِي زِيَادَةِ الْعَقْلِ وَالتَّدْبِيرِ، فَجُعِلَ لَهُمْ حَقُّ الْقِيَامِ عَلَيْهِنَّ لِذَلِكَ. وَقِيلَ: لِلرِّجَالِ زِيَادَةُ قُوَّةٍ فِي النَّفْسِ وَالطَّبْعِ مَا لَيْسَ لِلنِّسَاءِ، لِأَنَّ طَبْعَ الرِّجَالِ غَلَبَ عَلَيْهِ الْحَرَارَةُ وَالْيُبُوسَةُ، فَيَكُونُ فِيهِ قُوَّةٌ وَشِدَّةٌ، وَطَبْعَ النِّسَاءِ غَلَبَ عَلَيْهِ الرُّطُوبَةُ وَالْبُرُودَةُ، فَيَكُونُ فِيهِ مَعْنَى اللِّينِ وَالضَّعْفِ، فَجَعَلَ لَهُمْ حَقَّ الْقِيَامِ عَلَيْهِنَّ بِذَلِكَ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ). الثَّانِية" [القرطبي، ١٩٦٤، ج٥، ١٦٩].

-حق الطاعة: فواجب المرأة طاعة زوجها في غير معصية الله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»[الترمذي، الحديث رقم ١١٥٩، ج٣، ٤٥٧].

-التعدد في حالة الاحتياج، والقدرة على العدل بين الزوجات {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣)} [النساء].

-السكن والإنفاق قال تعالى: {أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ الله} [الطلاق: ٦، ٧].

-كلف الرجل بالسعي والضرب في الأرض لطلب الرزق والإنفاق، والدفاع عن الأسرة وحمياتها وكلف بالقتال.

- **خصائص تختص بها الأنثى دون الذكر منها:**

-الرضاعة والحضانة للمرأة: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[البقرة: ٢٣٣]، المرأة تقوم بأعباء كثيرة لا يستطيع أن يقوم بها

الرجل، كالحمل والرضاعة، والحضانة، والتربية للأطفال ؛ لما حباها الله من الحنان والعاطفة والرقة والصبر على ذلك.

-يعتري المرأة حالات خاصة كالحيض والنفاس وقد اعتبرت هذه الفروق في التكاليف الشرعية كالصلاة والصيام والحقوق الزوجية (النكاح) {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ} [البقرة: ٢٢٢].

-المهر أو الصداق: {وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤)} [النساء].

-العدة بعد الطلاق أو وفاة الزوج: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ} [البقرة: ٢٢٨]{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} [البقرة: ٢٣٤].

أ.فروق في الألسن والألوان: يختلف الناس في لغاتهم وألوانهم، وهي من آيات الله تعالى، {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢)} [الروم]و"الألسنة: اللغات. أو أجناس النطق وأشكاله. خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد، ولا جهارة، ولا حدّة، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا لكنة، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله، وكذلك الصور وتخطيطها، والألوان وتنويعها، ولاختلاف ذلك وقع التعارف، وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت مصالح كثيرة، وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية، فيعروك الخطأ في التمييز بينهما، وتعرف حكمة الله في المخالفة بين الحلىّ وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد، وفرّعوا من أصل فذ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون" [الزمخشري،ج٣: ٤٧٣].

"فلكل إنسان نبرات صوته، ومخارج كلماته، وطبقات أنغامه، التي تميزه عن غيره، فلا تختلط نبرة بنبرة، ولا يشتبه مخرج بمخرج، ولا تتماثل طبقة مع طبقة، وإن بدا في ظاهر الأمر أن هناك تماثلا وتشابها، بين صوت وصوت، ونغم ونغم، فإن الحقيقة غير هذا، حيث توجد فروق دقيقة، وخطوط هندسية غاية في الدقة، تفصل بين صوت وصوت، وتحجز بين نغم، ونغم. وكذلك الشأن في الألوان والأشكال، والصور.. إن يد القدرة القادرة المحكمة، قد أقامت كلا منها في موضعه، وجعلت بينها حاجزا، فلا يبغى بعضها على بعض.. تماما

كما حجزت بين البحرين: «هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائغٌ شَرابُهُ، وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ» هذا، في ظاهر الإنسان.. أما ما في باطنه، فالأمر أعجب وأغرب. فمنازع التفكير، ومناحي العواطف، ومسارب المشاعر، وخلجات الضمائر، ووسوسات الأهواء - إنها أمواج متدافعة على صدر محيط لا حدود له..ومع هذا فلا تختلط موجة بموجة، ولا يضيع تيار في عباب تيار..!" [الخطيب، ج١١، ٤٩٩] ومهما وصل إليه الإنسان من علم ومعرفة لنفسه يضل أمامه أسرار خفية، لم يصل إليها بعد وصدق الله {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)} [الذاريات] {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٥٣].

فتعدد اللغات والألوان بين الناس تختلف عنها بين المخلوقات الأخرى، يعلل لهذا الشعراوي بقوله: " لأن الجماد والحيوان ليس لهما مسئوليات ينبغي أنْ تُضبط وأنْ تُحدَّد كما للإنسان، وإلا كيف نُميز المجرم حين يرتكب جريمته ونحن لا نعرف اسمه، ولا نعرف شيئاً من أوصافه؟ وحتى لو عرفنا أوصافه فإنها لا تدلُّنا عليه دلالة قاطعة تُحدِّد المسئولية ويترتب عليها الجزاء. وقال سبحانه بعدها {وَأَلْوَانِكُمْ ... } [الروم: ٢٢] فاختلاف الألسنة والألوان ليحدث هذا التميُّز بين الناس، ولأن الإنسان هو المسئول، خلق الله فيه اختلافَ الألسنة والألوان؛ لنستدل عليه بشكله: بطوله أو قِصَره أو ملابسة " [الشعراوي، ج١٨، ص١١٣٦٦].

ب.فروق في السلوك والأخلاق: فالناس يتفاوتون في سلوكهم وأخلاقهم فشخص كريم وآخر بخيل، وشخص سريع الغضب وآخر بطيء الغضب، وشخص أمين وآخر خائن، {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)} [آل عمران]،{ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)} [الليل]وفي الحديث "يَكُونُ الرَّجُلُ سَرِيعَ الْغَضَبِ، قَرِيبَ الْفَيْئَةِ، فَهَذِهِ بِهَذِهِ، وَيَكُونُ بَطِيءَ الْغَضَبِ، بَطِيءَ الْفَيْئَةِ، فَهَذِهِ بِهَذِهِ، فَخَيْرُهُمْ بَطِيءُ الْغَضَبِ، سَرِيعُ الْفَيْئَةِ، وَشَرُّهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ بَطِيءُ الْفَيْئَةِ»[ابن حنبل، الحديث رقم ١١٥٨٧، ج١٨، ١٣٢]، وفي الحديث بيان لنوع الانفعال وتفاوت الأفراد في ذلك، على أربع مستويات:

-سريع الانفعال ولكنه سريع الرجوع، فيغضب بسرعة ويعود أيضا بسرعة، فهذه بتلك.

-بطيء الانفعال ولكنه بطيء الرجوع، فغضبه بطيء ويعود بطيئا، فهذه بتلك.

-بطيء الانفعال سريع الرجوع، فغضبه بطيء وعودته سريعا، وهو خيرهم.

-سريع الانفعال بطيء الرجوع، فيغضب سريعا وعودته بطيئة، وهو شرهم.

ولهذا لا يمكن التسوية بين الأفراد { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)} [الجاثية] فقد بين الله في كتابه عدم التسوية بينهم في المحيا والممات و"عمق موضوع كون القرآن هدى، وذكر صفات من يهتدي به، وشروط هذه الهداية، وبين طبيعة الذين لا يهتدون، إنها طبيعة آثمة كاذبة مستكبرة باغية جاهلة متبعة للهوى، أما الطبيعة المهتدية فمن خصائصها الإيمان، والعقل، والفكر، واليقين، والاتباع، والصدق، والطاعة، والانصاف، والعلم" [حوى، ١٩٨٥، ج٩، ٥٢٢٤]. وقال تعالى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)} [الحشر: ٢٠] لا يستوون في تصوراتهم ومعتقداتهم، ولا في أخلاقهم وسلوكهم، ولا في منزلتهم في الآخرة.

أ.فروق في العلم والخبرة: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)} [يوسف]{ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩)} [الزمر]{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)} [الأنعام] {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)} [الإسراء] { وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)} [النمل] {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) } [المجادلة] {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣)} [النحل]. وقال تعالى {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩) } [البقرة]. فالنصوص السابقة تشير إلى عدم التسوية بين العالم والجاهل، وأن العلماء يتفاوتون في علمهم وعملهم ودرجاتهم، ويعد هذا من المسلمات لدى الناس فصاحب الخبرة والشهادة العالية لا يمكن تسويته بمن لا يملك خبرة ولا علما سواء في الجانب المادي أو المعنوي.

وقد صنف رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس مع القرآن إلى أربعة أصناف، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ "[النيسابوري، الحديث رقم ٢٤٣، ج١، ٥٤٩]، فقد بين أن هناك تفاوتا بين الأفراد في تلاوتهم لكتاب الله من جهة وعدم تلاوتهم من جهة أخرى، وأن الأمر لا يقتصر على ظاهر التلاوة وإن كانوا في الظاهري سواء، فالمؤمن يقرأ القرآن، والمنافق كذلك؛ ولذلك فرق النبي صلى الله عليه وسلم بين أربع حالات، فقد فضل المؤمن بالقرآن والإيمان على المؤمن الذي لا يقرأ القرآن، وشبه المؤمن الذي لا يقرأ القرآن

بالتمرة طعمها حلو ولا رائحة لها، وشبه المنافق الذي يقرأ القرآن بالريحانة التي ريحها طيب لكن طعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة ليس لها ريح وطعمهما مر، فهناك فرق بين تلاوة المؤمن والمنافق، كما أن هناك فرقا أيضا بين المؤمن الذي لا يقرأ القرآن والمنافق.

ترتيب الأحق بإمامة الناس في الصلاة، فقدم الحافظ لكتاب الله، فأعلمهم بالسنة، فأقدمهم هجرة، فأكبرهم سنا، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لِيَؤُمَّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً، فَأَكْبَرُهُمْ سِنًّا، وَلَا يُؤَمَّنَّ رَجُلٌ فِي سُلْطَانِهِ وَلَا يُجْلَسْ عَلَى تَكْرِمَتِهِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ»[ابن حنبل، الحديث رقم ١٧٠٩٧،ج٢٨، ٣٢٤] وفي الحديث بيان فضل الحافظ لكتاب الله على غيره؛ لذلك قدم لإمامة المصلين في صلاتهم.

ب –**فروق في المعتقد، وتفاوت في الإيمان:** قال تعالى: {... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)} [البقرة] فاختلاف الناس في معتقداتهم تؤدي إلى اختلافهم في البواعث والدوافع والاستعدادات والميول والاتجاهات والاحتياجات، وهذا الاختلاف يؤثر بل يسيطر على بقية الفروق لدى الأفراد، ولأهميته تحدث عنها القرآن الكريم كثيرا، {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) } [السجدة] { مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} [آل عمران: ١٥٢]وقد صنف الله الناس إلى مؤمن، ومنافق، وكافر، وقد بينت النصوص القرآنية والنبوية خصائص وسمات كل منهم على حدة، وقد افتتحت سورة البقرة بتوصيف دقيق للثلاثة الأصناف ، وذكر أهم صفات للمؤمنين بأنهم المتقون، وأنهم يؤمنون بالغيب، ويقيموا الصلاة، وينفقوا من أموالهم على المحتاجين، ويؤمنوا بالقرآن وبالكتب السماوية، ويوقنوا باليوم الآخر، ثم ختمها بأنهم على هدى من ربهم، وأنهم المفلحون؛ لأنهم زكوا أنفسهم، {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩)} [الشمس].

ثم وصف الكفار بأنه تساوى لديهم الإنذار وعدم الإنذار؛ لأن النوافذ والوشائج التي تربطهم بالوجود وبخالق الوجود مغلقة، بل مختوم على قلوبهم، وعلى سمعهم، وغشى على أبصارهم؛ جزاء تكبرهم وعدم استجابتهم للإنذار؛ ولأنه دسس نفسه،{وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)} [الشمس].

ووصف المنافقين: بأنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وأنهم يخادعون الله والذين آمنوا وحقيقةً يخدعون أنفسهم، وأن في قلوبهم مرض، وأنهم مفسدون في الأرض، ويتكبرون ويتطاولون ويتعالون على عامة الناس، يوالون اليهود وأعداء الإسلام ويستهزئون بالمسلمين، ومن الملاحظ أن صفاتهم أخذت حيزا أكبر من الكفار؛ لأنهم أشد خطرا على المسلمين من الكفار؛ ولذلك حذر الله منهم فقال:{هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤)} [المنافقون].

وقد فصل القرآن الحديث عن الأصناف الثلاثة على النحو الآتي:

فالمؤمن أشد حبا لله، وخشية له، ويعمل وفق شرعه ومنهاجه،{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)} [الأنفال]، وصف المؤمنين حقا بأن قلوبهم تخشع عند سماع ذكر الله، ويزداد إيمانهم عند سماع القرآن، ويتوكلون على الله، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)}[الأنفال] {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)} [المؤمنون] {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)} [الحجرات]، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويوالون الله ورسوله والمؤمنون، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض قائلين {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)} [آل عمران].

والمسلمون متفاوتون في استعداداتهم ودوافعهم وأعمالهم، ودرجاتهم، قال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)} [فاطر: ٣٢]فأهل الكتاب العظيم من هذه الأمة على ثلاثة أقسام[ابن كثير، ج٦، ٥٤٦]:

- الظالم لنفسه وهو: المفرط في فعل الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.
- المقتصد وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات.
- السابق بالخيرات وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

والمنافق يتظاهر بالإسلام ويكيد بالخفاء للإسلام والمسلمين، يكره الحق وأهله، ويتربص بهم الدوائر،{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣)} [المنافقون] فقد وصفهم بأنهم لا يفقهون، ولا يعقلون، ولا يعلمون، وبأنهم صم بكم عمي، {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)} [البقرة]، فقد عطلوا ما أنعم الله عليهم من الحواس والعقل؛ لذلك وصمهم بالصم والبكم والعمي.

والكافر يجحد خالقه ويتخذ من دونه أندادا، ويحبهم كحب الله،{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ} [البقرة: ١٦٥] ويصد عن سبيل الله ويحارب الله ورسوله،{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)} [الأنفال] {وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦)}[الكهف] ويستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) } [الأنبياء] {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)} [الجاثية]وقد عطلوا وسائل المعرفة لديهم، فوصفهم بأنهم صم بكم وأنهم لا يعقلون، {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)} [البقرة: ١٧١] { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)} [الحج:

٤٦] فقد عطلوا عقولهم وتكبروا عن معرفة الحق وسخروا من المؤمنين واستهزأوا بهم ولم يستفيدوا مما يشاهدوا أو يسمعوا بل عطلوا كل وسائلهم عن معرفة الحق.

ولما كان الاختلاف حقيقة واقعية في الناس، فقد توافقت مع بقية المخلوقات الأخرى لتجد حاجاتها المتعددة والمختلفة، فكان التنوع في الفواكه والثمار، وفي الأرض والأنعام، لتعمل كمنظومة واحدة متكاملة قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)} [فاطر].

ولو تأملنا في الآيات بعمق نجد علاقة وطيدة بين إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المتنوعة والمختلفة، والجبال التي تشكل لوحة جمالية مع الأشجار والثمار والناس والدواب والأنعام، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ»: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ» [الترمذي، الحديث رقم٢٩٥٥ ،ج٥: ٢٠٤]دليل على هذه المنظومة الكونية التي تسير وفق نظام إلهي متقن،{وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)} [الرعد] ولو عدنا للوقوف مع الآيات،" فإنه لا يذكر هنا من الثمرات إلا ألوانها «فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُها» .. وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين في جميع الأجيال. فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر. بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد. فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف اللون! وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية. وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر. فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه. بل متميز من توأمه الذي شاركه حملا واحدا في بطن واحدة! وكذلك ألوان الدواب والأنعام " [إبراهيم، ج٥: ٢٩٤٢] {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)} [النحل]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: "{وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ} أَيْ: [وَ] كَذَلِكَ الْحَيَوَانَاتُ مِنَ الْأَنَاسِيِّ وَالدَّوَابِّ –وَهُوَ: كُلُّ مَا دَبَّ عَلَى قَوَائِمَ –وَالْأَنْعَامِ، مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِ. كَذَلِكَ هِيَ مُخْتَلِفَةٌ أَيْضًا، فَالنَّاسُ مِنْهُمْ بَرْبَرٌ وحُبُوش وطُمَاطم فِي غَايَةِ السَّوَادِ، وَصَقَالِبَةٌ وَرُومٌ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ، وَالْعَرَبُ بَيْنَ ذَلِكَ، وَالْهُنُودُ دُونَ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} [الرُّوم: ٢٢] . وَكَذَلِكَ الدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ، حَتَّى فِي الْجِنْسِ الْوَاحِدِ، بَلِ النَّوْعِ الْوَاحِدِ مِنْهُنَّ مُخْتَلِفُ الْأَلْوَانِ، بَلِ الْحَيَوَانُ الْوَاحِدُ يَكُونُ أَبْلَقَ، فِيهِ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ وَهَذَا اللَّوْنِ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ."[ابن كثير، ١٩٩٩،ج٦ :٥٤٤].

– الفروق داخل الفرد:

إن الفرد ليس بمستوى واحد في قدراته واستعداداته في مراحله العمرية قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)} [الروم]

"يُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى تَنَقُّلِ الْإِنْسَانِ فِي أَطْوَارِ الْخَلْقِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ، فَأَصْلُهُ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ، ثُمَّ يَصِيرُ عِظَامًا ثُمَّ يُكسَى لَحْمًا، ويُنفخ فِيهِ الرُّوحُ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ضَعِيفًا نَحِيفًا وَاهِنَ الْقُوَى. ثُمَّ يَشِبُّ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَكُونَ صَغِيرًا، ثُمَّ حَدَثا، ثُمَّ مُرَاهِقًا، ثُمَّ شَابًّا. وَهُوَ الْقُوَّةُ بَعْدَ الضَّعْفِ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ فَيَكْتَهِلُ، ثُمَّ يَشِيخُ ثُمَّ يَهْرَمُ، وَهُوَ الضَّعْفُ بَعْدَ الْقُوَّةِ. فَتَضْعُفُ الْهِمَّةُ وَالْحَرَكَةُ وَالْبَطْشُ، وَتَشِيبُ اللِّمَّةُ، وَتَتَغَيَّرُ الصِّفَاتُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} أَيْ: يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَتَصَرَّفُ فِي عَبِيدِهِ بِمَا يُرِيدُ، {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} ."[ابن كثير، ج٦، ٣٢٧]وقد يرد إلى أرذل العمر فلا يعلم بعد علم شيئا،{وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)} [النحل].

"تخضع الفروق الفردية للتغيير مع مرور الوقت، وخاصة أثناء مراحل النمو، على أن مقدار التغيير في الفروق الفردية ليس على درجة واحدة في مختلف صفات الشخصية. إذ تشير نتائج البحوث إلى أن درجة ثبات الفروق في الصفات العقلية، أكبر من درجة ثبات الفروق الفردية في السمات الانفعالية"[الشيخ، ٢٠٠٨، ٢٤]

وقد امر الله برعاية اليتيم والحفاظ على أمواله حتى يبلغ الرشد،{وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ

وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) } [النساء]"واختبروا عقول يتاماكم في أفهامهم، وصلاحهم في أديانهم، وإصلاحهم أموالهم"[الطبري، ج٧، ٥٧٤]

وقد بين الله أن الأطفال الذين كان لهم الحق في الدخول عدا الثلاثة الأوقات المحددة، إذا بلغوا الحلم فليستأذنوا مثل بقية الرجال، أي: أن قدراتهم وإدراكهم قد تطورت من الضعف إلى القوة؛ لذلك تغير الحكم، {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم} [النور: ٥٩].

والرسول صلى الله عليه وسلم يراعي هذا التغير الذي يحدث للإنسان مع تقدم عمره فقد أُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قال: لَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ وَلَأَصُومَنَّ النَّهَارَ، مَا عِشْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «آنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟» فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ، يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم «فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ» قَالَ قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ» قَالَ قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، وَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَهُوَ أَعْدَلُ الصِّيَامِ» قَالَ قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ» قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لَأَنْ أَكُونَ قَبِلْتُ الثَّلَاثَةَ الْأَيَّامَ الَّتِي قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي»[النيسابوري، ج٢، ٨١٢] وفي حديث آخر عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي، فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ "[ابن حنبل، الحديث رقم٦٩٥٨،ج١١، ٥٤٧].

وقد "أظهرت الدراسات النفسية أن كل إنسان هو نمط خاص بنفسه، وأنه يختلف عن بقية الأفراد في الشكل والحجم والصفات المزاجية والذكاء وغير ذلك" [كامل، عثمان، ٢٠١٠م: ٦٠]

مما سبق من النصوص نستنتج الآتي:

- أن الفرد يمر بمراحل وحالات متعددة، قوة وضعفا في القدرات والاستعدادات والاحتياج، والميل، فمثلا: قدرات الطفل واستعداداته واحتياجاته، تختلف عنها في مرحلة الشباب، وكذا مرحلة الشيخوخة تختلف عن المرحلتين السابقتين.
- رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم بأمته بتيسير الأمور في التشريع.
- معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بطبيعة الإنسان وأنه يمر بمراحل قوة ونشاط، وأخرى ضعف وكسل.
- التدرج مع المتعلم من الأدنى إلى الأعلى.
- إدراك الصحابي رضي الله عنه لحكمة النبي صلى الله عليه وسلم في توجيهه عندما وصل إلى مرحلة الضعف وتقدم به السن.
- تختلف الفروق لدى الفرد باختلاف العمر، والبيئة، والحال.
- الفرد يعتريه في الوقت الواحد عدة متغيرات، فهو سريع التفاعل مع العوامل الأخرى سلبا وإيجابا.
- يعتري الفرد حالة نشاط فيكون في الذروة، ويعتريه فتور، فيكسل ويضعف.

فعلى المربي المعلم أن يتيقظ للظروف التي قد تعتري المتعلم فتؤثر في طبيعته ومزاجه، فحالة النفس البشرية متفاعلة مع البيئة والحوادث التي تطرأ في حياته اليومية، وقد تحدث المتناقضات في وقت واحد، كمناسبة فرح وحزن في الوقت نفسه، فالمعلم يقدر مثل هذه الظروف الطارئة ويتعامل معها بما يناسبها، ولا يبني عليها مواقف دائمة، و"تعتبر معرفة المدرس بحقائق الفروق الفردية واستخدام هذه المعرفة في العملية التعليمية أمرًا ضروريًا إذا كان المدرس يسعى إلى تحقيق أهداف النمو لدى الأطفال تحت رعايته وتوجيهه، وعلى الرغم من أن الفروق الفردية لا تتحدد فحسب بالناحية العقلية، إلا أنه من الأهمية بالنسبة للمدرس أن يتحقق من أن تلاميذه لا يتساوون في إمكاناتهم العقلية"[الأشول، ٤٩٧].

وللإجابة عن السؤال الثاني ونصه: "ما الصور الواردة في القرآن الكريم المراعية للفروق الفردية؟"

تم استقراء الآيات القرآنية فوجد الباحث صورا عديدة لمراعاة الفروق الفردية؛ بل هي السمة الأساسية في التكاليف الشرعية، وفي القرآن الكريم بشكل عام، {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)} [القمر].

- **التكاليف الشرعية جاءت وفق القدرات لدى الإنسان:**

جاءت التكاليف الشرعية مبنية على التيسير قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥]،{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}[التغابن: ١٦] ولو تأملنا التكاليف نجد هذا اليسر يشمل كل التشريعات، فالتكاليف بحسب الطاقة والاستطاعة لدى كل فرد، ولذلك يتفاوت الأفراد في تحمل المسئولية بحسب ما أعطاهم الله تعالى من قدرات وطاقات وإمكانات مادية ومعنوية، فما يجب على الغني لا يجب على الفقير، ويجب على العالم ما لا يجب على الجاهل، وهكذا.. وقد تواترت الأدلة على ذلك: قال تعالى: {**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ **لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا** لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ} [البقرة: ٢٣٣].

قال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ **لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)} [الأنعام]{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ **لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢)} [الأعراف]{**وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢)} [المؤمنون] وقال تعالى: {**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا** سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)} [الطلاق].

"والتكاليف التي يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة. لا تتجاوز الطاقة ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاته لا تطلقها للعمل والبناء والنماء ولا تنسى حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجثماني والروحي لا تلبيها في يسر وفي سماحة وفي رخاء.. ومن ثم لا يحار ولا يقلق في مواجهة تكاليفه. يحمل منها ما يطيق حمله، ويمضي في الطريق إلى الله في طمأنينة وروح وسلام." [إبراهيم، ١٤١٢هـ،ج١، ٢٠٨ -٢٠٩]

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، فَخُذُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[ابن حنبل، الحديث رقم٨٦٦٤، ج١٤: ٣٠٠]فالأمور المنهي عنها محدودة ولا تكلف الفرد جهدا لأنه ترك، أما الأشياء المأمور بفعلها فكثيرة والقيام بها يحتاج إلى جهد؛ لذلك قال " فَخُذُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ" مراعيا قدرة الفرد وطاقته.

- **المنهج الإسلامي ومراعاة الفروق الفردية:**

إن المتأمل في المنهج الإسلامي المتمثل في الكتاب والسنة يدرك مدى مراعاته للفرد، واقعا، ومجتمعا، وطبيعة، وزمانا، ومكانا.

أولا التدرج :

يعد التدرج خاصية من خصائص المنهج الإسلامي، فقد استمر الوحي يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجما في ثلاث وعشرين عاما بحسب الوقائع والحوادث، وقد اعترض المشركون على ذلك فأنزل الله قوله تعالى:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)} [الفرقان]وجاء الرد عليهم في الآية نفسها، "كذلك أنزل مفرّقا. والحكمة فيه: أن نقوّي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه، لأنّ المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء، وجزأ عقيب جزء. ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا بحفظه"[الزمخشري، ج٣، ٢٧٨]ومن الأمثلة على التدرج الآتي:

أ. التدرج في تحريم الخمر: كان المجتمع العربي مولعا بشرب الخمر فجاء المنهج الإسلامي ليعالج هذه المشكلة، ومن كرم الله وإحسانه أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة، ولكنه أوجبها بالتدريج، مراعيا طبيعة الإنسان، فأول ما نزل في أمر الخمر قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة: ٢١٩]ثم نزل بعدها النهي عن شربها وإتيان الصلاة قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [النساء: ٤٣]ثم نزل قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)} [المائدة] ثم نزل تحريمه في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)} [المائدة]وفي هذا دليل واضح على مراعاة المنهج للطبيعة البشرية وتربيتها شيئا فشيئا بحسب قدرتها وطاقتها واستيعابها للتكاليف

ب.التدرج في فرض الجهاد: لقد أرسل الله رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولاقى من التكذيب والأذى من المشركين فأمره الله بالصبر والصفح الجميل، ومع ذلك يشتد الأذى يوما بعد يوم فيأمره الله أولا بالصبر {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥)} [المعارج] {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩)} [ق]، ثم أمره بأن يجاهدهم بالقرآن والحجة والبرهان قال تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)} [الفرقان]، ولم يقف الأمر عند الإيذاء بل قرر المشركون استئصال الدعوة بالقضاء

على النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)} [الأنفال] وبعد هذا المكر، والقرار، وخروج المسلمين من ديارهم بغير حق، أذن لهم بالقتال قال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا الله....} [الحج: ٣٩، ٤٠] وعند قرار المشركين بملاحقة المسلمين إلى المدينة المنورة، وذلك في السنة الثالثة، فرض الله الجهاد قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)} [البقرة].

فلم يفرض القتال في المرحلة المكية للدعوة، ولا شك أن هناك أهدافا وحكما تربوية في هذا التدرج لعل منها أن: " الإعداد في مثل هذه البيئة بالذات، تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم على شخصه أو على من يلوذون به. ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته. وتربيته كذلك على ضبط أعصابه، فلا يندفع لأول مؤثر – كما هي طبيعته – ولا يهتاج لأول مهيج، ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته. وتربيته على أن يتبع مجتمعاً منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته، ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره به – مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته – وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي، لإنشاء «المجتمع المسلم» الخاضع لقيادة موجهة، المترقي المتحضر، غير الهمجي أو القبلي! " [إبراهيم،١٤١٢ه، ج٣: ١٤٣٨].

ج –التنوع في الخطاب القرآني فقد يتناول الفكرة بأساليب متعدة من خلال قصة أو ضرب مثل، أو إثارة فإن " فِي تَنَوُّعِ الْكَلَامِ فَائِدَةٌ وَبَيَانُهَا هُوَ أن الله تعالى قال: وَالسَّماءَ بَنَيْناها [الذاريات: ٤٧] وَالْأَرْضَ فَرَشْناها [الذاريات: ٤٨] وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا [الذاريات: ٤٩] ثُمَّ جَعَلَ الْكَلَامَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلَمْ يَقُلْ فَفِرُّوا إِلَيْنَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ لِاخْتِلَافِ الْكَلَامِ تَأْثِيرًا، وَكَذَلِكَ لِاخْتِلَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ تَأْثِيرًا، وَلِهَذَا يُكْثِرُ الْإِنْسَانُ مِنَ النَّصَائِحِ مَعَ وَلَدِهِ الَّذِي حَادَ عَنِ الْجَادَّةِ، وَيَجْعَلُ الْكَلَامَ مُخْتَلِفًا، نَوْعًا تَرْغِيبًا وَنَوْعًا تَرْهِيبًا، وَتَنْبِيهًا بِالْحِكَايَةِ، ثُمَّ يَقُولُ لِغَيْرِهِ تَكَلَّمْ مَعَهُ لَعَلَّ كَلَامَكَ يَنْفَعُ، لِمَا فِي أَذْهَانِ النَّاسِ أَنَّ اخْتِلَافَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَاخْتِلَافَ الْكَلَامِ كِلَاهُمَا مُؤَثِّرٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ أَنْوَاعًا مِنَ الْكَلَامِ وَكَثِيرًا مِنَ الِاسْتِدْلَالَاتِ وَالْآيَاتِ"[الرازي، ١٤٢٠، ج٢٨، ١٨٩].

ولا شك أن في تنوع الخطاب مراعاة للفروق الفردية، بهدف استيعاب المخاطب للتكاليف الموجهة إليه، "ويذكر أن هدف القرآن فيما جاء من التعابير والأوصاف هو العظة والتنبيه وإيقاظ الضمائر ليرعوي الضّالّ عن ضلاله ويثبت المهتدي في طريقه بأسلوب يتسق مع متناول إحساس المخاطبين وتجاربهم ومشاهداتهم ومداركهم ومألوفاتهم ويثير فيهم الرهبة من العاقبة، ويتذكر أن ماهية هذه الحياة وحقيقتها مغيبتان لا يستطاع فهم شيء عنهما إلا بالأوصاف الدنيوية، وأن حكمة الله اقتضت وصفهما بهذه الأوصاف على سبيل التقريب والتشبيه."[عزة، ١٣٨٣، ج١، ١٨٧].

ثانيا: مراعاة الفروق الفردية من خلال البدائل:

جاءت التكاليف الشرعية بحسب استطاعة الفرد؛ {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ} [التغابن: ١٦]، ومن الأمثلة على ذلك:

-فريضة الصلاة لا تسقط على المسلم بأي حال من الأحوال، وفي هذا مشقة على الإنسان في حال النظرة العامة وإذا ما اطلع على الأحكام التفصيلية لكل الحالات وجد اليسر، فالمريض يصلى على الحالة التي يستطيعها قائما أو قاعدا أو على جنب ولو بروراميش العين، والمسافر يجمع تقديما أو تأخيرا ويقصر في مسافات القصر، والمقاتل في سبيل الله يصلي بالكيفية الخاصة بذلك كما هو مبين في كتب الفقه، وتسقط على الحائض والنفساء لتكرار ذلك على المرأة.

-صلاة الوتر فهي: ركعة ، أو ثلاث، أو خمس، أو سبع، أو تسع، أو إحدى عشرة ركعة، أو ثلاث عشرة ركعة، بحسب استطاعة الفرد.

-فريضة الزكاة: ركن من أركان الإسلام، ولكنها لم توجب على كل المسلمين، وإنما أوجبها الله على الأغنياء تؤخذ منهم، وترد على فقرائهم، وتؤخذ من وسط المال لا من كرائم أموالهم ولا رديئها

-فريضة صوم رمضان: ركن من أركان الإسلام ومع ذلك راعى، حالة المريض والمسافر والعاجز.

-حج بيت الله الحرام: وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، وقد أوجبه الله على المستطيع من المسلمين مرة واحدة في العمر لمن استطاع إليه سبيلا؛ كقوله تعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} [آل عمران: ٩٧]، تيسيرا ومراعاة لحالات الناس وظروفهم. كقوله تعالى: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ

الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)}[البقرة] ففي الآية الكريمة دليل واضح على مراعاة حالة الحاج المتمتع، في قوله { فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ } وفي الفدية،{ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} بحسب حالته، خير بين الصيام ثلاثة أيام، أو الصدقة على ستة مساكين نصف صاع من بر، أو نسك وهو شاة، بحسب استطاعته، هذه بدائل ثلاث ليختار منها ما تيسر له، أليس هذا عمل بمراعاة الفروق الفردية؟.

-كفارة اليمين:{ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) }[المائدة] فكفارة اليمين مخير صاحبها بين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، ونلاحظ هذه الثلاثة الخيارات فيها مراعاة للفروق الفردية ولحالة الأفراد، وفي حالة عدم الاستطاعة لأي منها فصيام ثلاثة أيام.

-كفارة الظهار: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)}[المجادلة].وفي كفارة الظهارة يبدأ بتحرير رقبة، فإذا لم يجد ينتقل لصيام شهرين متتابعين، وفي حالة عدم الاستطاعة ينتقل إلى إطعام ستين مسكينا، والمتدبر للقرآن الكريم يدرك هذا التيسير ومراعاة استطاعة الإنسان لتنفيذ التكاليف {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥]

-قتل الحاج الصيد في حالة الإحرام: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) } [المائدة].

-خلاصة القول: فإن التشريع الإسلامي في كل تكاليفه جاء مراعيا للفروق الفردية بين الناس وحالتهم كقوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)} [الفتح] والآية دليل على أن التكليف

يدور على الاستطاعة؛ ونفي الحرج عن كل الحالات المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيعا لدائرة الرخصة دون مشقة أو عناء.

وللإجابة عن السؤال الثالث ونصه: "ما النماذج العملية في السنة النبوية لتطبيق الفروق الفردية؟"

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم المترجم العملي للقرآن الكريم في أقواله، وأفعاله، وتقريراته، ونورد هنا بعض الأمثلة:

- **مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لقدرات الأفراد وطاقتهم:**

كان رسول صلى الله عليه وسلم يقدر الفروق الفردية ويراعيها في تعامله مع الصحابة رضي الله عنهم، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[النيسابوري، الحديث رقم ١٦، ج٣: ١٤٥٧].فمعرفة النبي صلى الله عليه وسلم لقدرات أبي ذر رضي الله عنه أدى لمنعه من تحمل المسؤولية، وبين له سبب ذلك؛ بأنه ضعيف في الجانب القيادي؛ بينما كان يكلف بعض الصحابة بمهام كبيرة، دون طلب منهم: فعَنْ سَلَمَةَ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، تَخَلَّفَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي خَيْبَرَ، وَكَانَ رَمِدًا، فَقَالَ: أَنَا أَتَخَلَّفُ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَلَحِقَ بِهِ، فَلَمَّا بِتْنَا اللَّيْلَةَ الَّتِي فُتِحَتْ قَالَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا أَوْ لَيَأْخُذَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يُفْتَحُ عَلَيْهِ» فَنَحْنُ نَرْجُوهَا، فَقِيلَ: هَذَا عَلِيٌّ فَأَعْطَاهُ، فَفُتِحَ عَلَيْهِ" [البخاري، الحديث رقم ٤٢٠٩، ج٥ : ١٣٤]

كما راعى حالة الفرد في القيام بالتكاليف الشرعية منها: من لم يستطع أداء فريضة الحج دله على عمل ميسور يحصل به على أجر حج وعمرة؛ وباستطاعته القيام به ولا يكلفه نفقة وعناء سفر. عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ»، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «تَامَّةٍ، تَامَّةٍ، تَامَّةٍ»[البغوي، الحديث رقم٧١٠، ج٣، ٢٢١].

وما سئل صلى الله عليه وسلم يوم النحر عن تقديم أو تأخير من أعمال الحج إلا أجاب لا حرج، فقد راعى صلى الله عليه وسلم حال الأفراد والفروق الفردية في أداء مناسك الحج يوم النحر(يوم العيد) فيسر لهم ذلك، وفي الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: زُرْتُ قَبْلَ أَنْ

أَرْمِيَ؟ قَالَ: «لاَ حَرَجَ» قَالَ آخَرُ: حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ؟ قَالَ: «لاَ حَرَجَ» قَالَ آخَرُ: ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ؟ قَالَ: «لاَ حَرَجَ»[البخاري، الحديث رقم٦٦٦٦، ج٨، ١٣٥].

كما راعى قدرة الفرد على القيام بالتكليف فمثلا: فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم تكن بكيفية واحدة ومستوى واحدا، بل لها ثلاث مستويات فقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[النيسابوري، الحديث رقم ٧٨، ج١، ٦٩].

وكذلك راعى حالة الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ويرغبون في التقرب إلى الله ومنافسة الأغنياء الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله؛ فدلهم على بدائل عديدة، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالُوا لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: "أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»[النيسابوري، الحديث رقم٥٣، ج٢، ٦٩٧]، ويتضح من نص الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكر العديد من البدائل ليلبي حاجة كل فرد، أليس في هذا مراعاة للفروق الفردية؟ فينبغي على المربين والمعلمين أن يقتدوا برسول الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم في تربيتهم وتعليمهم، وذلك بوضع بدائل عديدة ليختار المتعلم ما يستطيع القيام به دون عناء.

وفي طبيعة هذه المراعاة الشرعية يقول الإمام الشاطبي: " إن الشارع لما تقرر أنه جاء بالشريعة لمصالح العباد، وكانت الأمور المشروعة ابتداء قد يعوق عنها عوائق، من الأمراض والمشاق الخارجة عن المعتاد، شرع له أيضا توابع وتكميلات ومخارج، بها ينزاح عن المكلف تلك المشقات، حتى يصير التكليف بالنسبة إليه عاديا ومتيسرا"[الشاطبي، ٢٠٠٢، ج١، ٢٤٤].

- **مراعاة الفروق الفردية في التعليم :**

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخص بعض الصحابة بعلم دون غيرهم لمعرفته بقدرتهم على فهم المقصود دون عامة الناس، فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، وَمُعاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ، قَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ»، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «يَا مُعَاذُ»، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

وَسَعْدَيْكَ ثَلاَثًا، قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلاَ أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: «إِذًا يَتَّكِلُوا» وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا"[البخاري، الحديث رقم١٢٨ ،ج١، ٣٧] وقد مُنع معاذ من اخبار الناس تخوفا من عدم الفهم؛ وعلل ذلك بأنهم سوف يتكلوا أي: سيكتفون بظاهر النص ويتركون العمل، وقد أخبر به معاذ رضي الله عنه عند موته خشية الوقوع بالإثم لكتمان العلم؛ ولأن النهي للكراهية لا للتحريم.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: ضَمَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتَابَ»[البخاري، الحديث رقم ٧٥، ج١، ٢٦] فيه تحفيز للصحابي لما اكتشف فيه من النباهة والموهبة لطلب العلم.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ فِيهِ انْتِقَاصٌ وَلَا وَهْمٌ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: " مَنْ وُلِدَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ فِي الْإِسْلَامِ، فَمَاتُوا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ، أَدْخَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ، وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بَلَغَ بِهِ الْعَدُوَّ، أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ، كَانَ لَهُ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ، وَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، يُدْخِلُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَيِّ بَابٍ شَاءَ مِنْهَا الْجَنَّةَ "[ابن حنبل، الحديث رقم ١٩٤٣٧، ج٣٢، ١٨٢] في الحديث ترغيب في الأعمال الصالحة وعدد مجموعة من الأعمال ليس كل الناس لديهم ثلاثة أولاد يموتون في الصغر، وليس كل الشباب ينشئون في سبيل الله، فتعدد الأعمال ليستوعب الفروق بين الناس، ويزيد في عملية التحفيز أن للجنة ثمانية أبواب، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

مراعاة حالة الأفراد: عن عبد الله بن عمرو بن العاصي، قال: كنَّا عند النبَي صلى الله عليه وسلم، فجاء شابٌ فَقال: يا رسول الله، أُقبِّلُ وأنا صائِمٌ؟ قال: "لا"، فجاء شيخٌ فقال: أُقبِّلُ وأنا صائم؟ قال: "نعم"، قال؟ فنَظر بعضُنا إلى بعض، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد عَلِمْتُ لِمَ نَظرَ بعضكم إلى بعْضٍ، إن الشيخ يَمْلِك نفسه"[ابن حنبل، الحديث رقم ٦٧٣٩، ج٦، ٢٨٣] فقد سأل الشاب عن حكم التقبيل للصائم وسأل الشيخ السؤال نفسه، وكانت الإجابة مختلفة فرخص للشيخ ومنع الشاب، مبينا السبب في ذلك إن الشيخ يملك نفسه.

مراعاة حالة الناس: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: " يَا عَائِشَةُ لَوْلاَ قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ - قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ - بِكُفْرٍ، لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ وَبَابٌ يَخْرُجُونَ " فَفَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ[البخاري، الحديث رقم ١٢٦، ج١، ٣٧].

- **اكتشاف الطاقات وتوظيفها:**

كان عليه الصلاة والسلام يعمل على اكتشاف المواهب والقدرات لدى أصحابه ويوظفها، قَالَ زَيْدٌ: ذُهِبَ بِي إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَأُعْجِبَ بِي، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا غُلَامٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ بِضْعَ عَشْرَةَ سُورَةً، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، وَقَالَ: "يَا زَيْدُ، تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ، فَإِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي " قَالَ زَيْدٌ: فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ، مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ، وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ " [ابن حنبل، الحديث رقم ٢١٦١٨، ج٣٥، ٤٩٠].

كما أنه عليه الصلاة والسلام كان يبرز جوانب التفوق لدى أصحابه ليستفاد منهم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالحَلَالِ وَالحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ» هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ "[الترمذي، الحديث رقم ٣٧٩١، ج٥، ٦٦٥]ويستفاد من الحديثين أن الناس يتفاوتون في مواهبهم وقدراتهم، وأن على المربي والمعلم اكتشافها وتوظيفها في الحياة العملية؛ ليستفيد منها الآخرون. وفي حديث آخر يحث الصحابة على تلقي القرآن من أربعة قال صلى الله عليه وسلم: «خُذُوا القُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - فَبَدَأَ بِهِ -، وَسَالِمٍ، مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ»[البخاري، الحديث رقم ٣٨٠٨، ج٥، ٣٦].

- **رسل قريس إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية:**

أرسلت قريش قبل صلح الحديبية من يفاوض النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أوفدت بديل الخزاعي، والحليس بن علقمة، وعروة ابن مسعود، وخراش ابن أمية، وكلما وفد عليه وفد ورَآهُ الرسول صلى الله عليه وسلم عن بعد أدرك أن قريشا ما تريد الصلح بعد، وكان عليه الصلاة والسلام يُقوِّم الموقف ويتخذ الإجراءات المناسبة، بحسب طبيعة الشخص المرسل، حتى ألجأ قريشا للصلح، فأرسلت سهيل بن عمرو " فَأَتَى سُهَيْلٌ لِلنّبِيّ صلى الله عليه وسلم ، فَلَمّا رَآهُ النّبِيّ صلى الله عليه وسلم حِينَ طَلَعَ قَالَ: أَرَادَ الْقَوْمَ الصّلْحَ"، (الواقدي، ١٩٨٩م، ج٥:٣٦٠) ومن الملاحظ أن استقبال النبي صلى الله عليه وسلم للوفود كان مختلفا، تبعا للفروق الفردية بين

رسول وآخر، فما كان مع الحليس غير ما كان مع عروة الثقفي مثلا، وفيه إشارة لمعرفة النبي **صلى الله عليه وسلم** لأعدائه وتعامله مع كل فرد بما يتناسب معه ويحقق الهدف المرجو، وقد ورد تفصيل القصة كاملة في كتب السيرة.

- **خطة النبي صلى الله عليه وسلم للهجرة إلى المدينة المنورة:**

عندما أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة، رسم خطة محكمة، ابتداء من خروجه من بيته إلى وصوله إلى يثرب، فقد خرج من بيته متجها إلى بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه في وقتٍ عادة لا يخرج فيه الناس، ووظف الطاقات المتاحة والمتوفرة أحسن توظيف، ووزع المهام، حيث جعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ينام على فراشه، وإرجاع الأمانات لأصحابها، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه صاحبه في الهجرة، وعبدالله بن أبي بكر رضي الله عنهما يوافيهم بأخبار قريش(تأمين المعلومات)، وعامر بن فهيرة رضي الله عنه يرعى الغنم ويزودهم باللبن ويزيل الأثر، وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها التأمين الغذائي، وعبد الله بن أريقط، وكان كافرا تأمين المواصلات، ومن خلال هذه الخطة نلاحظ الآتي:

- معرفة النبي صلى الله عليه وسلم للفروق الفردية لمن معه.
- اكتشف طاقاتهم وقدراتهم.
- توظيف دقيق لتلك الطاقات والقدرات، فلو فكر المتخصصون في تعديل توزيع المهام لما وجدوا أمثل مما وزعه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهنا ينبغي على المعلمين والإدارة المدرسية الوقوف مع هذا الدرس العظيم، وذلك في اكتشاف المواهب والقدرات وتوظيفها وتفعيلها بما يخدم الفرد والمجتمع.

-تكليف حذيفة بن اليمان بالذهاب لمعسكر الأحزاب :

نادى الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب في أصحابه قائلا: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ،

فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ»[النيسابوري، الحديث رقم ٩٩، ج٣، ١٤١٤]فقد سبر النبي صلى الله عليه وسلم غور الصحابي حذيفة رضي الله عنه، واكتشف قدراته ومواهبه، ووظفها في الوقت المناسب.

-تكليف نعيم بن مسعود لتخذيل الأحزاب:

جاء نعيم بن مسعود الأشجعي وهو صديق قريش واليهود ومن غطفان، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وقومي لا يعلمون بإسلامي فمرني بأمرك حتى أساعدك. فقال: أنت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذّل عنّا ما استطعت فإن الحرب خدعة.[الخضري، ١٤٢٥ه، ١٤٧]

لقد وجه النبي صلى الله عليه وسلم نعيم رضي الله عنه لعمل يجيده ويحسنه واكتفى بقوله:" خذّل عنّا ما استطعت فإن الحرب خدعة" فاستوعب نعيم التوجيه، وتوجه على الفور إلى بني قريظة، وقال لهم: تعرفون ودي لكم وخوفي عليكم، وأخبرهم بأن وضع قريش وغطفان ليسوا مثلهم، فإن حصل النصر فهم شركاء وإن كانت الأخرى تركوكم لمحمد وعادوا لديارهم، ونصحهم بأخذ رهائن من قادة قريش وغطفان لضمان بقائهم معهم في المعركة فاستحسنوا رأيه وطلب منهم أن يكتموا عنه.

"ثم توجّه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم، وقال: أنتم تعرفون ودّي لكم ومحبتي إيّاكم وإني محدّثكم حديثا فاكتموه عني، قالوا: نفعل، فقال لهم: إنّ بني قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه، فقالوا له: أيرضيك أن نأخذ جمعا من أشرافهم ونعطيهم لك، وتردّ جناحنا الذي كسرت - يريد بني النضير - فرضي بذلك منهم. وها هم مرسلون إليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفا.

ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشا فأرسل أبو سفيان وفدا لقريظة يدعوهم للقتال غدا فأجابوا: إنّا لا يمكننا أن نقاتل في السبت وكان إرساله لهم ليلة السبت - ولم يصبنا ما أصابنا إلّا من التعدّي فيه، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا، وتذهبوا إلى بلادكم، فتحققت قريش وغطفان كلام نعيم بن مسعود، وتفرّقت القلوب فخاف بعضهم بعضا. وكان عليه الصلاة والسلام قد ابتهل إلى الله الذي لا ملجأ إلّا إليه ودعاه بقوله: «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم» وقد أجاب الله دعاءه عليه الصلاة والسلام فأرسل على الأعداء ريحا باردة في ليلة

مظلمة، فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم في الليلة المدلهمّة فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح"[الخضري، ١٤٢٥ه، ١٤٧ -١٤٨]وهكذا استطاع نعيم بدهائه وكيده أن يفرق تحالف الأحزاب بتوفيق الله ومشيئته.

- **النهي عن إطالة الإمام في الصلاة:**

فقد جاء في الحديث «إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالكَبِيرَ وَذَا الحَاجَةِ»[البخاري، الحديث رقم ٧٠٢، ج١، ١٤٢] وفي رواية أخرى «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ، فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ»[البخاري، الحديث رقم ٧٠٣، ج١، ١٤٢] فالنبي صلى الله عليه وسلم يوجه من يؤم الناس في الصلاة أن يخفف معللا ذلك أن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة، فإذا كان مراعاة الفروق الفردية وحالة الناس في الصلاة فما دونها من الأعمال من باب أولى.

وعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَقَدْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى خَلْفَ مُعَاذٍ فَطَوَّلَ بِهِمْ، فَانْصَرَفَ الرَّجُلُ فَصَلَّى فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَمَّا قَضَى مُعَاذٌ الصَّلَاةَ قِيلَ لَهُ: إِنَّ فُلَانًا فَعَلَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ مُعَاذٌ: لَئِنْ أَصْبَحْتُ لَأَذْكُرَنَّ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَتَى مُعَاذٌ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَيْهِ فَقَالَ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَمِلْتُ عَلَى نَاضِحِي مِنَ النَّهَارِ، فَجِئْتُ وَقَدْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلْتُ مَعَهُ فِي الصَّلَاةِ، فَقَرَأَ سُورَةَ كَذَا وَكَذَا فَطَوَّلَ، فَانْصَرَفْتُ فَصَلَّيْتُ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَفَتَّانٌ يَا مُعَاذُ؟ أَفَتَّانٌ يَا مُعَاذُ؟ أَفَتَّانٌ يَا مُعَاذُ؟»[النسائي، الحديث رقم٨٣١ ج٢، ٩٧]فينبغي على المعلم أن يراعي حال طلبته فلا يشق عليهم، بل يكون رحيما بهم فلا يطيل عليهم ولا يكلفهم ما لا يطيقون مسترشدا بالهدي النبوي في تعامله مع طلبته.

- **وللإجابة عن السؤال الرابع ونصه: ما النماذج التطبيقية لدى علماء المسلمين؟** لقد بذل علماء الإسلام جهودا عظيمة في خدمة العلم وطلبته، فأصلوا وقعدوا لكل فن ومارسوا التربية عمليا وأبدعوا في ذلك، ومن ذلك مراعاة الفروق الفردية لدى المتعلمين، فالأفراد يختلفون "في معارفهم وأفهامهم، وليس بالضرورة أن يكون هذا الاختلاف محصوراً في دائرة الصواب والخطأ فقط؛ بل قد يكون اختلافاً في التنوع تظهر فيه درجات من الاجتهاد والنظر اقتضاها اختلاف زاوية النظر والتأمل، أو الاطلاع على دائرة أوسع من العلوم، أو الانفتاح على أفق أرحب من الفهم والفقه، أو اقتضاها اختلاف النظر إلى المآل والعاقبة المتوقعيْن للأمر نفسه" [المنتدى الإسلامي، ١٤٣، ٦٨]، ومن اختلاف التنوع ما اجتهد فيه المفسرون والفقهاء فيعد هذا

الاختلاف تنوعا وإثراء وليس اختلاف تضاد، وهذا يؤكد الممارسة العملية لاختلاف الناس في قدراتهم العقلية، وكذلك اختلاف الفقهاء في فهم المسألة الواحدة، فمثلا: في قوله تعالى: {أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا} [النساء: ٤٣]فاختلفوا في تفسير (أو لامستم النساء) فقال بعضهم يقصد به الجماع، وقال بعضهم هو اللمس، وهذا النوع أمثاله كثر في كتب التفسير، وفي كتب الفقه.

وقد اتبع المفسرون في تفسيرهم للقرآن الكريم مناهج متعددة، فمنهم من فسر بالمأثور، ومنهم بالدراية، ومنهم من جمع بين الرواية والدراية، ومنهم من تفنن في أسلوب العرض" وقد تنوّع أسلوب ابن أبي الربيع في عرض المادة العلمية التي أوردها في تفسيره، وبخاصةٍ ما يتعلّق بالعربيّة أداةِ الفهم والبيان، فتارةً يستهل الكلام على الآية بتفسير غريبها وما يتبع ذلك من توجيه المعنى، وتارة يأخذ في تفصيل المسائل النحوية والصرفية معرجاً على ما فيها من خلاف أو مُتَوخّياً له ليحكم فيه بما يراه وتارةً تتواردُ القضايا النحوية والصرفية، والبلاغية على النص فيأخذ في بيان كل قضية منها، وغرضه من التنوّع في العرض تقريب المعنى بما يُعينُ على استنباط الحكم الذي تحتمله الآية أو تدلُّ عليه"[ابن أبي الربيع، ١٤١٣، ٣٢٢]. ويرى بعض العلماء أنه لا ينبغي لعالم أن يخوض في علم لا يتقنه ولو كان إماما، "ولا شك عند كل ذي لب أن من تكلم في علم ولو كان إماما فيه، وكان العلم يتعلق بعلم آخر وهو غير متقن لما يتعلق به داخله الوهم والغلط عند حاجته إليه."[ابن الجزري، ١٩٩٩، ٧] " فاقتضت حكمة الله أن تكون هناك فروق فردية وقدرات مختلفة في خلقه، ولا شك أن الإدراك العقلي يختلف من شخص لآخر، وكذا الصفات الخلقية والجسمية وغيرها، وهذا رزق وعطاء منه سبحانه، قال تعالى: { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: ٢٦٩]" [الصفدي، الأسطل، ٢٠١٠، ٢٧٤].

- **تعامل علماء الإسلام مع الفروق الفردية:**

لقد أدرك الصحابة رضي الله عنهم الفروق الفردية وتعاملوا معها، ولعل فهمهم لها جاء من خلال صحبتهم لرسول الله **صلى الله عليه وسلم**، ومشاهدتهم لممارسته العملية والقولية، وظهر آثار الفروق الفردية في فقه الصحابة، حتى عُرف لدى العلماء ابن عمر بنوع من الشدة في الأخذ بالنصوص، وعُرف ابن عباس بالفقه والتيسير، وهكذا يمكن استقراء تأثير الفروق الفردية في الفكر التشريعي بشكل عام.

وقد حذر عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه من مخاطبة الناس بمستوى أعلى من فهمهم، حيث قَالَ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً» [النيسابوري، الحديث رقم ٥، ج١، ١١]، يقول القرضاوي" يشير الحديث إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يراعي الفروق الفردية بين الصحابة، فليس

ما يصلح لشخص يصلح لآخر، وليس كل ما يصلح لبيئة يصلح لأخرى، وليس كل ما يصلح لفئة أو جنس يصلح لغيرها، وليس كل ما يصلح لزمن يصلح لسائر الأزمنة والعصور، والمعلم الموفق هو الذي يعطي كل إنسان –فردا أو جماعة –من العلم ما يلائمه ويصلح له، وبالقدر الذي يصلح به، وفي الوقت الذي ينتفع به" [القرضاوي، د.ت، ١٣٥]؛ لذلك "قرر العلماء أن الفتوى تقدر زمانا ومكانًا وشخصًا. واعتبار المآلات –الذي نحن فيه – يحتاج كل هذا، إلى معرفة أحوال الزمان والمكان والأشخاص، لكي يتأتى للمفتي تقدير مآلات الأفعال وآثار فتواه عليها."[حمودة، ١٩٨٩، ٣٥٥].

والعلماء يتفاوتون في علمهم وفهمهم يقول الإمام الشوكاني في ترجمته للسيد عبد القادر بن أحمد عبد القادر الكوكباني" وأخبرني الْعَالم الْفَاضِل عبد الرَّحْمَن بن الْحسن الريمي أَنه حضر في بعض المواقف بِصَنْعَاء وَقد كَانَ اجْتمع فِيهِ أكَابِر عُلَمَاء صنعاء وَسَمَّاهُمْ لي وكل وَاحِد لَهُ شهرة كَبِيرَة بِالْعلمِ والتفنن فِيهِ قَالَ وَمن جملَة الْحَاضِرين صَاحب التَّرْجَمَة – عبد القادر الكوكباني – وَهُوَ أَصْغَرهم سناً وَكَانَ ذَلِك في إحدى قدماته إلى صنعاء قَالَ فرأيتهم يتواضعون لَهُ ويخضعون لعلمه ويستفيدون مِنْهُ ويعترفون بارتفاع دَرَجَته"[الشوكاني، ج١، ٣٦١]

- **نماذج من مراعات علماء الإسلام للفروق الفردية:**

لقد برز العديد من العلماء المربون الذين مارسوا وألفوا بطريقة مباشرة وغير مباشرة في مراعاة الفروق الفردية بين طلبة العلم أمثال: الإمام ابي حامد الغزالي، وابن خلدون، وابن أبي الدنيا، والقابسي، وابن الجزار، وابن جماعة، وابن سحنون، وابن القيم، وابن تيمية، والعز بن عبد السلام، ومحمد قطب، والقرضاوي، وغيرهم.

- **مراعاة تفاوت الأفهام لدى الأفراد:**

يتفاوت طلبة العلم في فهمهم واستيعابهم، وقد أدرك العلماء المربون ذلك، نذكر على سبيل المثال:

الإمام النووي: يوضح أهمية مراعاة المربي المعلم للفروق الفردية بين طلبة العلم واتباع أساليب متعددة في تعليمهم، حيث قال: "وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَاذِلًا وُسْعَهُ فِي تَفْهِيمِهِمْ وَتَقْرِيبِ الْفَائِدَةِ إلَى أَذْهَانِهِمْ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَيُفَهِّمَ كُلَّ وَاحِدٍ بِحَسْبِ فَهْمِهِ وَحِفْظِهِ فَلَا يُعْطِيهِ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ وَلَا يُقَصِّرُ بِهِ عَمَّا يَحْتَمِلُهُ بِلَا مَشَقَّةٍ وَيُخَاطِبُ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى قَدْرِ دَرَجَتِهِ وَبِحَسْبِ فَهْمِهِ وَهِمَّتِهِ فَيَكْتَفِي بِالْإِشَارَةِ لِمَنْ يَفْهَمُهَا فَهْمًا محققا ويوضع الْعِبَارَةَ لِغَيْرِهِ وَيُكَرِّرُهَا لِمَنْ لَا يَحْفَظُهَا إلَّا بِتَكْرَارٍ وَيَذْكُرُ الْأَحْكَامَ مُوَضَّحَةً بِالْأَمْثِلَةِ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ لِمَنْ لَا يَنْحَفِظُ لَهُ الدَّلِيلُ فَإِنْ جَهِلَ دَلِيلَ بَعْضِهَا ذَكَرَهُ لَه" [النووي، ج١، ٣١] وفيه تفصيلٌ بينٌ وواضح لما ينبغي على

المعلم مراعاته في تعليم طلبته، فلا يعطي الطالب ما لا يفهمه ويفقهه؛ بل يعطي كلا بما يناسب قدرته وطاقته، وذكر بعض الأساليب التي تعين المعلم في مراعاة الفروق الفردية. ويقول الإمام الشاطبي فيمن يتبجح "بذكر المسائل العلمية لمن ليس من أهلها، أو ذكر كبار المسائل لمن لا يحتمل عقله إلا صغارها، على ضد التربية المشروعة، فمثل هذا يوقع في مصائب؛ ومن أجلها قال علي رضي الله عنه: «حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ»[البخاري، الحديث رقم ١٢٧، ج١، ٣٧]. وقد يصير ذلك فتنة على بعض السامعين"[الشاطبي، ٢٠٠٢، ج١، ٥٦]. "وَمِنْ ذَلِكَ: التحدُّث مَعَ الْعَوَامِّ بِمَا لَا تَفْهَمُهُ وَلَا تَعْقِلُ مَغْزاه، فإنه مِنْ بَابِ وَضْعِ الْحِكْمَةِ غَيْرَ مَوْضِعِهَا، فَسَامِعُهَا إما أَن يَفْهَمَهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا . وَهُوَ الغالب، وذلك فتنة تؤدي إلى التكذيب بالحق، أَو إلى العمل بالباطل. وإما أَن لَا يَفْهَمُ مِنْهَا شَيْئًا، وَهُوَ أسلم، وَلَكِنَّ الْمُحَدِّث لَمْ يُعْطِ الْحِكْمَةَ حَقَّهَا مِنَ الصَّوْن، بل صار في التحدُّث بها كالعابث بنعمة الله." [الشاطبي، ٢٠٠٨، ج٢، ٣١١]

وذكر الإمام الغزالي أن من وظائف المعلم: "أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم " [الغزالي، ١٩٩٦،ج١، ٨٧].

ويقول الإمام الشوكاني: "فالعالم الَّذِي أعطَاهُ الله الْأَمَانَة وَحمله الْحجَّة وَأخذ عَلَيْهِ الْبَيَان يُورد الْكَلَام مَعَ كل أحد على حسب مَا يقبله عقله وبقدر استعداده"[الشوكاني، ١٩٩٨، ١١٠]ومما سبق يتبين اتفاق العلماء على تفاوت طلبة العلم في فهمهم وقدراتهم، وأنه ينبغي على المعلم تنويع طرائق وأساليب تدريسه، وتقديم من المعلومات والمعرفة ما يتناسب مع قدراتهم العقلية، وإن إعطاء طالب العلم ما لا يبلغه عقله تكون فتنة عليه، وقد يؤدي لانحرافه أو تركه لطلب العلم.

وقد بين الإمام الغزالي بعض الأساليب في رياضة الصبيان وتأديبهم، والتي ينبغي أن تؤسس على الرفق واللين، والثواب والمدح لا العقاب والشدة والتعنيف؛ حيث قال: (ثم مهما ظهر من الصبي من خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه، ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة؛ فينبغي أن يتغافل عنه، ولا يهتك ستره، ولا يكاشفه، ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيد جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانية فينبغي أن يعاقب سراً ويعظم الأمر فيه، ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا، وأن يُطّلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة، وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه"[الغزالي، ١٩٩٦، ج٣، ١٠٦] .

ويصف الإمام الشوكاني شيخه العلامة عبد القادر الكوكباني في حسن تعليمه ومعرفة الفروق الفردية ومراعاتها لدى المتعلمين قائلا: "وَله فِي حسن التَّعْلِيم صناعَة لَا يقدر عَلَيْهَا غَيره فإنه يجذب إلى محبته وإلى الْعَمَل بالأدلة من طبعه أكثف من الصخر وإذا جالسه منحرف الْأَخْلَاق أَو من لَهُ فِي الْمسَائِل الدِّينِيَّة بعض شقَاق جَاءَ من سحر بَيَانه بِمَا يؤلف بَين المَاء وَالنَّار وَيجمع بَين الضَّب وَالنُّون فَلَا يُفَارِقهُ إِلَّا هُوَ عَنهُ رَاض وَلَقَد كنت أرى مِنْهُ من هَذَا الْجِنْس مَا يزْدَاد مِنْهُ تعجبي ولذا تم خَبره بأحوال النَّاس وَبِمَا يَلِيق بِكُل وَاحِد مِنْهُم وَمَا يُنَاسِبه ومالا يُنَاسِبه"[الشوكاني، ج١، ٣٦٤] ويتبين مما سبق اهتمام العلماء بالفروق الفردية والتعامل معها باستخدام طرائق وأساليب متنوعة.

ويشير الفارابي إلى طريقة اكتشاف الفرد الفرق بينه وبين غيره فيقول: "ِان كل وَاحِد من النَّاس مَتى مَا رَجَعَ إِلَى نَفسه وَتَأمل أحوالها وأحوال غَيره من أَبنَاء النَّاس وجد نَفسه فِي رُتْبَة يشركهُ فِيهَا طَائِفَة مِنْهُم وَوجد فَوق رتبته طَائِفَة مِنْهُم أَعلَى منزلَة مِنْهُ بِجِهَة أَو بجهات وَوجد دونهَا طَائِفَة هم أوضع مِنْهُ بِجِهَة أَو جِهَات لِأَن الْملك الْأَعْظَم وَأَن وجد نَفسه فِي مَحل لَا يرى لأحد من النَّاس فِي زَمَانه منزلَة أَعلَى من مَنْزِلَته فَإِنَّهُ مَتى تَأمل حَالَة نعما وجد فيهم من يفضل عَلَيْهِ بِنَوْع من الْفَضِيلَة إِذْ لَيْسَ فِي أَجزَاء الْعَالم مَا هُوَ كَامِل من جَمِيع الْجِهَات وَكَذَلِكَ الوضيع الخامل الذّكر يجد من هُوَ دونه بِنَوْع من الضعة فقد صَحَّ مَا وصفناه، وَينْتَفع الْمَرْء باسْتِعْمَال السياسات مَعَ هَؤُلَاءِ الطَّبَقَات الثَّلَاث، أما مَعَ الأرفعين فلينال مرتبتهم، وَأما مَعَ الْأَكفاء فليفضل عَلَيْهِم، وَأما مَعَ الأوضعين فلئلا ينحط إِلَى رتبتهم" [الفارابي، ٧ –٨].

- **اكتشاف أصحاب المواهب:**

أولى العلماء اهتمامهم باكتشاف أصحاب المواهب المميزة في طلب العلم وتشجيعها والاهتمام بها، فقد أكد ابن القيم على أهمية اكتشاف المواهب والقدرات لدى المتعلم من وقت مبكر حتى يحسن المعلم توظيف تلك الطاقات والقدرات والمواهب بما تعود الفائدة على المتعلم وعلى الأمة؛ حيث قال: "وَمِمَّا يَنْبَغِي أَن يعْتَمد حَال الصَّبِي وَمَا هُوَ مستعد لَهُ من الْأَعْمَال ومهيأ لَهُ مِنْهَا فَيعلم أَنه مَخْلُوق لَهُ فَلَا يحملهُ على غَيره مَا كَانَ مَأْذُونا فِيهِ شرعا فَإِنَّهُ إِن حمله على غير مَا هُوَ مستعد لَهُ لم يفلح فِيهِ وَفَاته مَا هُوَ مُهَيَّأ لَهُ فَإِذا رَآهُ حسن الْفَهم صَحِيح الْإِدْرَاك جيد الْحِفْظ واعيا فَهَذِهِ من عَلَامَات قبُوله وتهيئه للْعلم لينقشه فِي لوح قلبه مَا دَامَ خَالِيا فَإِنَّهُ يتَمَكَّن فِيهِ ويستقر ويزكو مَعَه وَإِن رَآهُ بِخِلَاف ذَلِك من كل وَجه وَهُوَ مستعد للفروسية وأسبابها من الرّكُوب وَالرَّمْي واللعب بالرُّمْحِ وَأَنه لَا نَفاذ لَهُ فِي الْعلم وَلم يخلق لَهُ مكنه من أَسبَاب الفروسية والتمرن

عَلَيْهَا فَإِنَّهُ أَنْفَع لَهُ وللمسلمين وَإِن رَآهُ بِخِلَاف ذَلِك وَأَنه لم يخلق لذَلِك وَرَأى عينه مَفْتُوحَة إِلَى صَنْعَة من الصَّنَائِع مستعدا لَهَا قَابلا لَهَا وَهِي صناعَة مُبَاحَة نافعة للنَّاس فليمكنه مِنْهَا هَذَا كُله بعد تَعْلِيمه لَهُ مَا يحْتَاج إِلَيْهِ فِي دينه فَإِن ذَلِك ميسر على كل أحد لتقوم حجَّة الله على العَبْد فَإِن لَهُ على عباد الْحجَّة الْبَالِغَة كَمَا لَهُ عَلَيْهِم النِّعْمَة السابغة وَالله أعلم" [ابن قيم الجوزية، ١٩٧١، ٢٤]، ويؤكد ابن القيم على أهمية اكتشاف المواهب والقدرات لدى الإفراد من وقت مبكر وتوظيفها وعدم اقحامهم في مجالٍ خلاف ميولهم واستعدادهم، ومراعاة الفروق الفردية بينهم، فيوجه كل فرد لما يصلح له ويكون هذا في العلوم الكفائية، أما العلوم العينية فهي بوسع كل مكلف وهي محدودة كالصلاة والصوم والحج فيتم تعليم الجميع.

ومن الأمثلة العملية على اهتمام العلماء بأصحاب المواهب، فقد «ذكر ابن عبد الهادي أن أحد علماء حلب قدم من دمشق وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له: أحمد بن تيمية، وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصدا لعلي أراه. فقال له خياط: هذه طريق كتّابه، وهو إلى الآن ما جاء، فاقعد عندنا، الساعة يجيء يعبر علينا ذاهبا إلى الكتّاب. فجلس الشيخ الحلبي قليلا، فمر صبيان، فقال الخياط للحلبي: فذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية، فناداه الشيخ فجاء إليه، فناول الشيخ اللوح، فنظر فيه، ثم قال: يا ولدي امسح هذا حتى أملي عليك شيئا تكتبه، ففعل فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر، أو ثلاثة عشر حديثا، وقال له: اقرأ هذا، فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه ثم دفعه إليه، وقال: اسمعه عليّ، فقرأ عليه عرضا كأحسن ما أنت سامع، فقال له: يا ولدي امسح هذا، ففعل. فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها ثم قال: اقرأ هذا، فنظر فيه كما فعل أول مرة فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم، فإن هذا لم ير مثله. أو كما قال»[ابن تيمية، ١٤٢٥، ٨ -٩] وصدقت فراسة هذا العالم فقد برز ابن تيمية وكان علما شامخا من أعلام الإسلام.

ومثل ذلك حدث في القطر اليماني عندما قدم العلامة عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر الكوكباني من كوكبان إلى صنعاء وعلم بعزم الشوكاني للسفر إلى خارج اليمن لطلب العلم بعد أن أحرز كل ما لدى علماء اليمن فطلبه وعرض عليه بأن بغيته من العلم موجود لديه، ولم يكن بينهما سابق معرفة، وبالفعل وجد بغيته وتتلمذ على يديه وقد شجعه واهتم به يقول الشوكاني: "وَكنت أحرر مَا يظْهر لي في بعض الْمسَائِل وأعرضه عَلَيْهِ فإن وَافق ما لديه من اجْتِهَاده في تِلْكَ المسألة قرظه تَارَة بالنظم الْفَائِق وَتارَة بالنثر

الرَّائِق وَإِن لم يُوَافق كتب عَلَيْهِ ثمَّ أكتب على مَا كتبه ثمَّ كَذَلِك فإن بعض الْمسَائِل التي وَقعت فِيهَا المباحثة حَال الْقِرَاءَة اجْتمع مَا حررته وحرره فِيهَا إِلَى سبع رسائل"[الشوكاني، ج١، ٣٦٣].

وخلاصة القول: إن علماء الإسلام قد أدركوا أن الناس يختلفون في مواهبهم وقدراتهم وذلك من خلال فهمهم لكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وانعكس ذلك في مؤلفاتهم وتعليمهم، "ومن الواقعية إدراك أن تفاوت القدرات إنما هو بسبب تنوع المواهب، واختلاف الاستعدادات، ذلك أن الله قسم الأعمال والأخلاق كما قسم الأموال والأرزاق، وعلى الكل أن يرضى بما فتح له فيه، وأفضل الأعمال بعد الفرائض يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه، ومن الناس من فتح له في كل باب، وضرب له في كل خير بسهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء١."[يسري، ٢٠٠٦، ٩١].

التوصيات والمقترحات:

في ختام هذا البحث يقترح الباحث التوصيات والمقترحات الآتية:

١. أن تراعي المؤسسات التربوية والتعليمية الفروق الفردية في بناء المناهج وتطويرها.
٢. تزويد المعلمين بالطرائق والأساليب التي تراعي الفروق الفردية بين طلبته.
٣. العناية بإعداد المعلمين وتأهيلهم في مؤسسات الإعداد والتدريب على معرفة الفروق الفردية وكيفية التعامل معها.
٤. الاهتمام بدراسة تراثنا الإسلامي التربوي ولا سيما الفروق الفردية وتدريسها في كليات التربية ومعاهد إعداد المعلمين.
٥. ينبغي على القائمين على العملية التربوية والتعليمية مراعاة الفروق الفردية بين الطلبة ووضع معايير علمية لتوزيع الطلبة على الشعب داخل المدارس بحيث لا يؤدي هذا التوزيع إلى فشل ضعيفي الذكاء، أو تغير مواهب الأذكياء نتيجة لتدني مستوى الدراسة عن مقدرتهم.
٦. توجيه الطلبة إلى التخصصات التي تناسب قدراتهم واستعداداتهم وميولهم؛ لتلبية حاجات الفرد والمجتمع ويسهم في تنمية المجتمع.
٧. ينبغي على المعلمين اكتشاف المواهب والقدرات لدى طلبتهم وتوظيفها وتفعيلها في حياتهم العملية.
٨. على المعلمين مراعاة الفروق الفردية بين طلبتهم في التكاليف لا سيما الاقتصادية، والاجتماعية.

٩. إجراء دراسات حول الفروق الفردية عند علماء المسلمين.

١٠. إجراء دراسات ميدانية لمعرفة مدى مراعاة المعلمين للفروق الفردية.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. إبراهيم، سيد قطب، (١٤١٢)، في ظلال القران، ط١٧، ج ٣، دار الشروق - بيروت.

٢. ابن ابي الربيع ، عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله، (١٤١٣)، تفسير الكتاب العزيز وإعرابه، تحقيق: علي بن سلطان الحكمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - السعودية.

٣. ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، (١٩٩٩)، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ط١، دار الكتب العلمية.

٤. ابن الخطيب، محمد محمد عبد اللطيف، (١٩٦٤)، أوضح التفاسير، ط١، المطلعة المصرية ومكتبتها.

٥. ابن الضحاك، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى، (١٩٧٥)، سنن الترمذي، ط٢، ج٥، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.

٦. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله، (٥١٤٢٥)، شرح العقيدة الاصفهانية، ط١، تحقيق: محمدبن رياض الأحمد، المكتبة العصرية - بيروت.

٧. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله، (١٩٩٩)، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ط٧، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب - بيروت.

٨. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، (١٩٨٤)، التحرير والتنوير، ج١٥، الدار التونسية للنشر - تونس.

٩. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، (١٩٧١)، تحفة المودود بأحكام المولود، مكتبة دار البيان -دمشق.

١٠. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، (١٩٩٩)، تفسير القرآن العظيم، ط٢، تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع .

١١. الأسمر، النبي المربي، ط١، دار الفرقان للنشر والتوزيع - عمان الأردن.

١٢. الأشول ، عادل عز الدين، (د.ت)، علم نفس النمو من الجنين إلى الشيخوخة، مكتبة الأنجلو المصرية.

١٣. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، (١٤٢٢هـ)، صحيح البخاري، ط١، ج١، الحديث رقم ٧٩، باب فضل من علم وعلم، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة.

١٤. البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد، (٢٠٠٩)، مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار.

١٥. البستاني، محمود،(١٩٩٢)، الإسلام وعلم النفس، ط١، مجمع البحوث الإسلامية - بيروت - لبنان.

١٦. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، (١٩٨٣)، شرح السنة، ط٢، تحقيق شعيب الأرنؤوط -محمد زهير الشاوش، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت.

١٧. البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر، (د.ت)، نظم الدر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب الإسلامي - القاهرة.

١٨. الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، (١٩٧٥)، ط٢، سنن الترمذي، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.

١٩. جاد المولى، محمد أحمد، (د.ت)، الخلق الكامل، مؤسسة الرسالة – بيروت.

٢٠. الجرموزي، أحمد، (١٩٩٧)، الشخصية والقدرات العقلية، مركز التربية -صنعاء.

٢١. الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر، (٢٠٠٣)، أيسر التفاسير لكلام العليم الكبير، ط٥، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة - السعودية.

٢٢. الحربي، طلال بن سعد، (١٤١٦ه)، القواعد الأساسية للتعامل مع الفروق الفردية في القرآن الكريم، مجلة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد(١٤).

٢٣. حمودة، طاهر سليمان، (١٩٨٩)، جلال الدين السيوطي عصره وحياته وجهوده في الدرس اللغوي،ط١، المكتب الإسلامي – بيروت.

٢٤. حمودة، طاهر سليمان،(١٩٨٩)، جلال الدين السيوطي عصره وحياته وجهوده في الدرس اللغوي،ط١، المكتب الأسلامي – بيروت.

٢٥. حومد، أسعد، (د.ت)، أيسر التفاسير.

٢٦. حوى، سعيد، (١٩٨٥)، الأساس في التفسير، ط١، ج٢، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة.

٢٧. الخضري، محمد بن عفيفي الباجوري، (١٤٢٥)، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، دار الفيحاء – دمشق.

٢٨. الخطيب، عبد الكريم يونس، (د.ت)، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي – القاهرة.

٢٩. دسوقي، كمال،(١٩٧٦)، علم النفس ودراسة التوافق، ط١، دار النهضة العربية – بيروت.

٣٠. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، (١٤٢٠ه)، مفتاح الغيب، ط٣، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣١. رضا، محمد رشيد بن علي، "مجلة المنار"، مج ٢٦.

٣٢. الريماوي، محمد عودة، (١٩٩٤)، سيكولوجية الفروق الفردية والجمعية في الحياة النفسية، دار الشروق للنشر والتوزيع – بيروت.

٣٣. الزحيلي، وهبة بن مصطفى ، (١٤١٨ه)، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط٢، دار الفكر المعاصر – دمشق.

٣٤. الزحيلي، وهبة بن مصطفى، (١٤٢٢)، التفسير الوسيط للزحلي، ط١، ج٣، دار الفكر – دمشق.

٣٥. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (١٤٠٧هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط٣، دار الكتاب العربي – بيروت.

٣٦. السباعي، مصطفى بن حسني،(١٩٨٥)، السيرة النبوية – دروس وعبر ، ط٣، المكتب الإسلامي.

٣٧. سليمان، عبد الرحمن سيد، (١٩٩٧)، نمو الإنسان في الطفولة والمراهقة، دار زهراء الشرق – القاهرة.

٣٨. الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي ،(٢٠٠٨)، الاعتصام، ط١، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.

٣٩. الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي،(٢٠٠٢)، الموافقات في أصول الشريعة، ط١، المكتبة العرية صيدا – بيروت.

٤٠. الشعراوي، محمد متولي، (د.ت)، تفسير الشعراوي، ج١٧، مطابع أخبار اليوم،.

٤١. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، (١٤١٤)، فتح القدير، ط١، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت.

٤٢. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، (١٩٩٨)، أدب الطلب ومنتهى الأدب، ط١، تحيق: عبد الله يحيى السريحي، دار ابن حزم – لبنان – بيروت.

٤٣. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، (د.ت)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة – بيروت.

٤٤. الشيخ، سلمان الخضري، (٢٠٠٨)، سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء، ط١، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة - عمان.

٤٥. صديق خان، أبو الطيب محمد، (١٩٩٢)، فتح البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية للطباعة والنشر صيدا - بيروت.

٤٦. الصفدي، نعيم أسعد، الاسطل، عبد اللطيف مصطفى، (٢٠١٠)، الفروق الفردية في ضوء التربية النبوية، مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية، المجلد١٢، العدد(١).

٤٧. طه، فرج عبد القادر، (١٤٢٦هـ)، أصول علم النفس الحديث، دار الزهراء – الرياض.

٤٨. عبد المعطي، حسن مصطفى، وقناوي، هدى محمد،(د.ت)، علم نفس النمو، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

٤٩. عزة، دروزة محمد، (١٣٨٣)، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة.

٥٠. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل ،(١٣٧٩ه)،فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة – بيروت.

٥١. الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد، (١٩٩٦)، إحياء علوم الدين، تحقيق الشحات الطحان، وعبد الله المنشاوى، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع - المنصورة – مصر.

٥٢. الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد، (١٩٩٦)، إحياء علوم الدين، ط١، تحقيق الشحات الطحان، وعبدالله المنشاوي، مكتبة الإيمان - المنصورة، مصر.

٥٣. الفارابي، محمد بن محمد بن طرخان، (د.ت)، رسالة ضمن "مجموع في السياسة"ط١، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية.

٥٤. القرشي، أسماء غالب عبد الكافي، (٢٠٠٥)، الفروق الأساسية بين الرجل والمرأة وحكمة وجودها، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير، كلية الآداب - جامعة الإيمان.

٥٥. القرضاوي، يوسف، (د.ت)، السنة النبوية مصدرا للمعرفة والحضارة.

٥٦. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، (١٩٦٤)، الجامع لأحكام القرآن، ط٢، تحقيق البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة.

٥٧. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، (١٩٦٤)، تفسير القرطبي، ط٢، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة.

٥٨. القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (د.ت)، تفسير القشيري، ط٣، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر.

٥٩. قطب، محمد، (١٩٩٣)، دراسات في النفس الإنسانية، ط١٠، دار الشروق – القاهرة.

٦٠. كامل، طارق، وعثمان، سعيد، (٢٠١٠م)، علم النفس التربوي، مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية.

٦١. الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور، (٢٠٠٥)، تفسير الماتريدي، ط١، تحقيق د.محمدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت.

٦٢. الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور، (٢٠٠٥)، تفسير الماتريدي، ط١، تحقيق د.محمدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت.

٦٣. مجمع اللغة العربية بالقاهرة(إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، (د.ت)، المعجم الوسيط، دار الدعوة.

٦٤. محمد بن محمد بن طرخان أبو نصر الفارابي، (د.ت)، رسالة ضمن "مجموع في السياسة"ط١، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية.

٦٥. المنتدى الإسلامي، "فضية للنقاش" مجلة البيان ، العدد ١٤٣.

٦٦. نجاتي، محمد عثنان، (٢٠٠١)، القرآن وعلم النفس، ط٧، دار الشروق - القاهرة.

٦٧. الندوي، سليمان، "تحقيق معنى السنة وبيان الحاجة إليها"، مجلة البيان"، العدد(٣٠)، المنتدى الإسلامي.

٦٨. النووي، محيي الدين يحيى بن شرف، (د.ت)، المجموع شرح المهذب، ج١، دار الفكر.

٦٩. النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، (د.ت): صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٧٠. الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي، (١٩٨٩)، المغازي، ط٣، تحقيق مارسدن جونس، دار الأعلمي -بيروت.

٧١. يسري، محمد، (٢٠٠٦، طريق الهداية، ط٢.

٧٢. اليماني، هاني بن حسن عبدالله، (١٤٢٩ه)، منهج السنة النبوية في مراعاة الفروق الفردية وتطبيقاتها التربوية في المدرسة الابتدائية، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في الأصول الإسلامية للتربية، كلية التربية – جامعة أم القرى بمكة الكرمة.

المراجع الإنجليزية

1. Runce, M. A, Everyone has creatve botential, In Sternberg, R. J. Grigorinc, E. L,. and singer, J.L. creativity: From botential to Realizatation, Washington DC: American bsychological Association, 2004).
2. Cornbleth C.(1991). Social Studies Introduction, in: Lewy Arieeh. The International Encyclopedia of Curriculum. Now York, Pergamon